انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
[سورة الاسراء]

درجات النّاس

روى الشعبي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
قال لى أبى : أرى هذا الرجل — يعنى الفاروق رضى الله عنه — يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وإنى موصيك بخلال أربع : لا تفشين له سراً ، ولا يجربن عليك كذباً ، ولاتطو عنه نصيحة ، ولاتغتابن عنده أحداً. فقلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف ، قال : إى والله ، ومن عشرة آلاف !

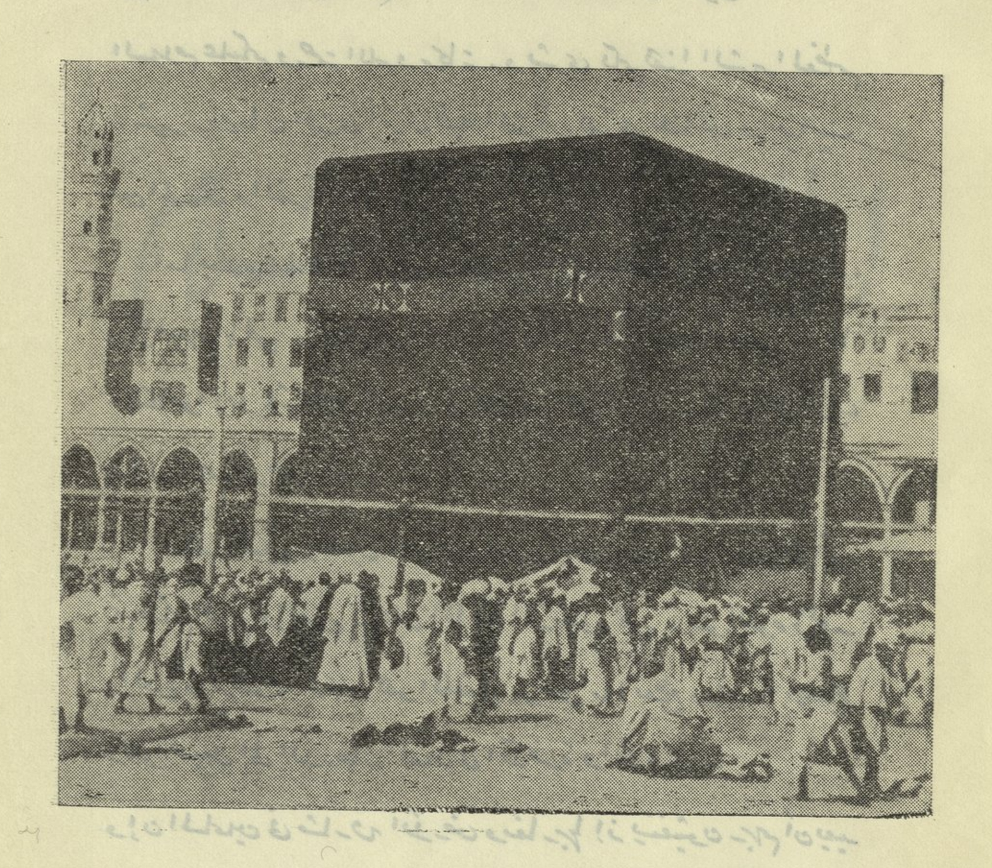
طه محمّد السّاكت
المدرس بالأزهر

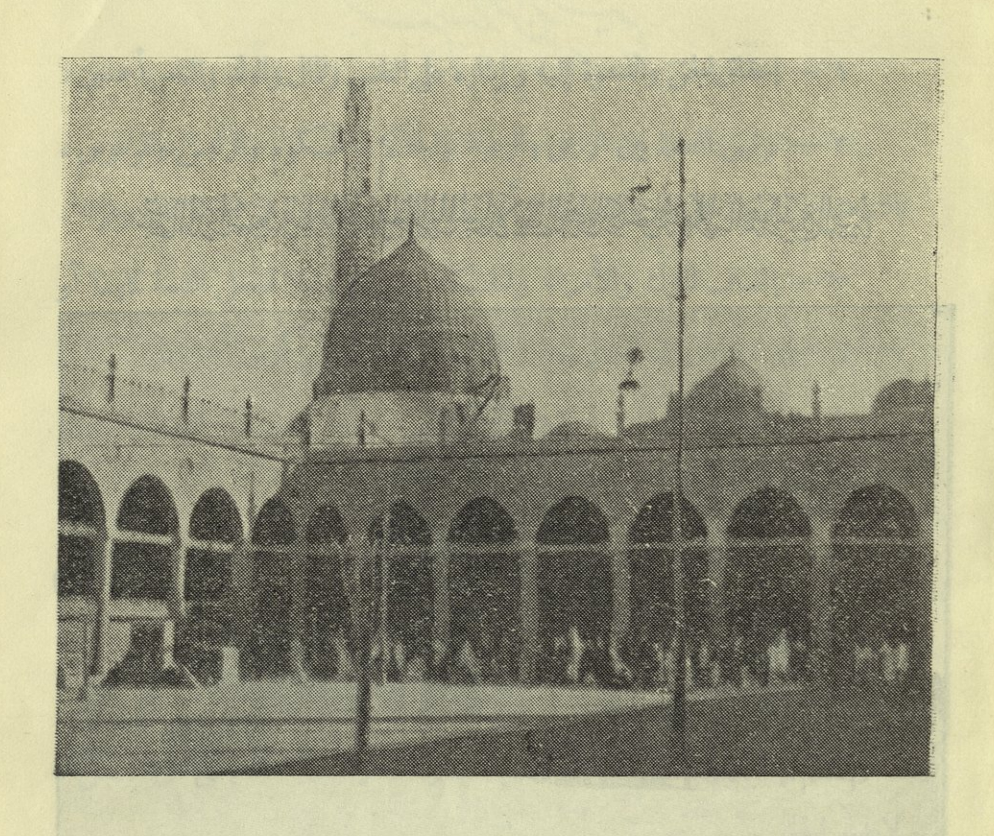
شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم (*)

إن الدين عند الله الإسلام

(*) « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله »

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ
فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞

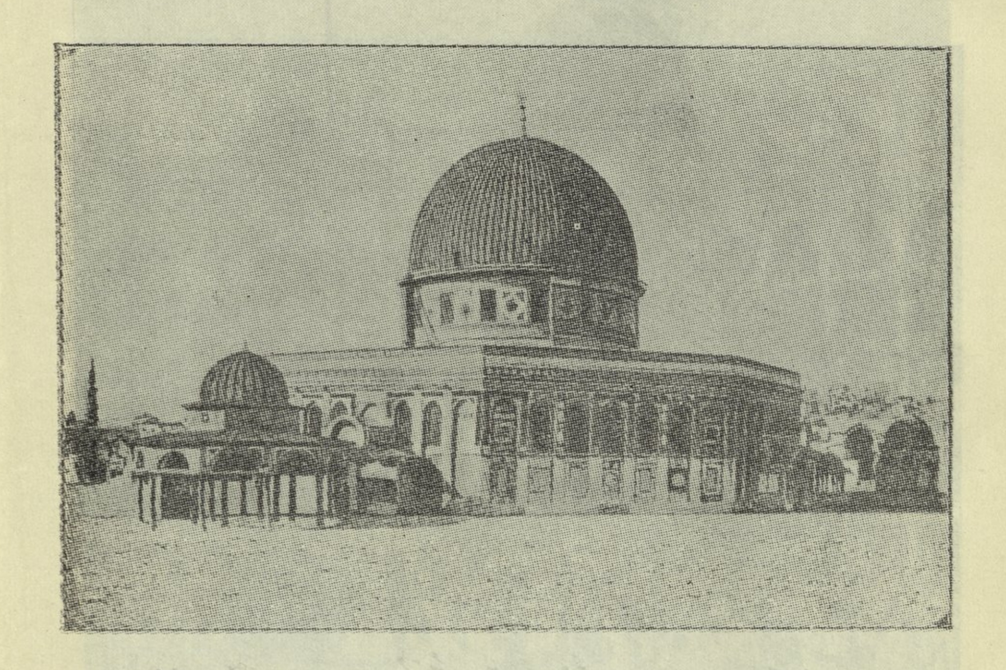




قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : لا تُشَدُّ الرِّحالُ إِلَّا إلى ثلاثةِ مساجد :

مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى : رواه البخاري ومسلم

سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير



غرض هذا الكتاب

١ — إحقاق الحق والدعوة إليه و إيثاره على النفس والمال والولد والناس أجمعين .

٢ — توثيق الصلة بين الراعى والرعية والحاكم والمحكوم والرئيس والمرءوس ، بالتناصح والتعاون على البر والتقوى ، فى أدب الفرقان وحكمته ، وعزيمة الإيمان وعزته .

٣ — إنصاف الملوك والأمراء والحكام ممن ظلم وغلا فجعل التبعة كلها أو معظمها عليهم ، ونسى أن الشعوب شركاؤهم فى التبعة إن لم يكونوا أساسها .

٤ — مصارحة الملوك والحكام بأحوال الأمم ، و بأنها إنما تحبهم وتدعو لهم وتؤيدهم بمقدار إقامتهم كتاب الله وعنايتهم به .

٥ — الدعوة الجادة الدائبة إلى تربية القيم الروحية والدرجات الرفيعة والهمم العالية التى تنشئ بإذن الله أمة صالحة لعمارة الأرض .

٦ — التأدب بأدب الله وكتابه مع الأنبياء والصحابة والسلف الصالح .

٧ — التخلق بخلق القرآن فى البحث والنقد والمجادلة « بالتى هى أحسن » لإظهار الحق .

٨ — وجماع ذلك كله أخذ الكتاب بقوة ، وتفديته بالأرواح والمهج .

* * *

هذه ثمانية أسهم [1] لن يصيب واحد منها الغرض إلا إذا كان الرماة أشداء رحماء ، ورثوا عن السابقين الأولين إحسان الرمى .

---

(١) أبواب الجنة ثمانية بنص السنة ، وأبواب جهنم سبعة بنص الكتاب . والفارق : الحصن الحصين وهو التوحيد .

كلمة الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وصلى الله وسلم وبارك على من أدبه ربه بأدب التنزيل ، وعلى آله وصحبه « الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جَمعوا لكم فاخشَوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْهم سوءٌ واتبعوا رضوانَ اللهِ واللهُ ذو فضلٍ عظيمٌ » .

أخى ، سلام عليك .

وبعد ، فإنك تحب نفسك ولا ريب ؛ ومن أجل حبك إياها تبتغى لها الدرجات العُلا ، فى الآخرة والأولى .

وهذا الكتاب الذى بين يديك ، نعمة من الله سِيقت إليك ... (*)

قدمه لحياته قبل رمسه ، أخ يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، راجياً أن يساعدك بإذن الله على ارتفاع درجتك ، فى دنياك وآخرتك . ثم هو — بعون الله — بعد ذاك ، يُعدك لامتحان مولاك ، قبل أن يبغتك ، فتزِلّ القدم ، وتَعض بَنان الندم ، ولات ساعة مندم .

فتدارك أمرك إذاً وشمّر عن ساعد الجد . واسأل الله من فضله ، إن فضله لا يُحدّ . وإذا أسرفت — ياصاح — على نفسك ، فلا تقنَط من رحمة ربك ؛ إنه « هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة » وعنده « ثوابُ الدنيا والآخرة »

أخوك الساكت

(*) اقتباس من حديث أشرنا إليه فى هامش صفحة ٥٤

المسلمون على شروطهم (*)

ستعلم — أخى — وأنت تقرأ هذا الكتاب ، أن صاحبه أنفق فيه حرَّ ماله ، وزهرة حياته ، ومهجة فؤاده . فما كان له بعد ذلك أن يبيعه بعَرَض من الدنيا ، وإلا كان أخسر التجار صفقاً ، ولا أن يُهديه لغير أهله ، وإلا كان أسفه الناس رأياً.

وأهل هذا الكتاب ، وأنت إن شاء الله منهم :

من يؤمن بالآية الكريمة « إن الله لايغُيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا مابأنفسِهم .. » إيمانَه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ ومن يعمل على هذا التغيير فى نفسه وعشيرته وأمته والناس جميعاً ما استطاع إليه سبيلا ، ومن لا يألو حكمة و « حُسناً » فى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ضارعا إلى الله جل وعلا أن يؤتينَا من لدنه رحمة ويهيئ لنا من أمرنا رشدا .

* * *

ذلك ، وكان المؤلف قد أباح فى الطبعة الأولى إعادة هذا الكتاب لكل راغب فى طبعه ونشره ، على شرطين :

(١) أن يطبعه وينشره — كما فعل صاحبه — حسبة لله تعالى .

(٢) وألا يعدل فيه أو يهذب إلا بإذن منه ، أو من نائبه .

فاستجاب لله على هذين الشرطين رجل العمل والنُّبل ﴿ الحاج محمد سالم سالم ﴾ أنفق على الطبعة الثانية وأهداها ، فكان من الذين سنوا سنة حسنة لهم أجرها وأجر من عمل بها بعدهم ، لا ينقص من أجورهم شىء .

(*) صدر حديث جاء فى الصلح ، رواه الامام أحمد وأبوداود .

لـكن من المآخذ القوية على الشرط الأول أنه حبس الـكتاب فى طبعتيه على طائفة خاصة ، فى حين أن المقصود إطلاقه وتعميم النفع به . ورب مشترٍ له أحق بغرضه — الذى قدمنا — من مُهدًى إليه .

من أجل ذلك جعل الشرط الأول اختياراً لا إلزاماً ، وأصبح من حق كل أحد أن يطبعه و ينشره بثمن لا شطط فيه « ومن تَطوَّع خيراً فإن اللهَ شاكرٌ عليم »

وقد قام بهذه الطبعة الثالثـة لجنة مباركة [1] قصدت إلى تعميم النفع وتيسيره ، دون أن تَمس شرط المؤلف فيما عاهد الله عليه .

***

و بعد ، فإن يك هذا الـكتاب — فى طوره الثالث — قد بلغ الرشد أو كاد ، فإن الفضل فى ذلك لمن بيده الفضل سبحانه ، ثم للناقدين الفضلاء الصرحاء ، الذين كان أحبهم إلىّ أشدهم صرامة فى الحق ومضيا فيه من غير مجاملة ولا محاباة .

وكنت أود أن يتسع المجال لذكرهم مع ذكر نماذج من نقدهم ، إعلاناً بإحقاق الحق والرجوع له ، وارتياحا للدعوة إليه والجهاد فيه ؛ إذ كان ذلك أول غرض من أغراض هذا الـكتاب !

ومهما يضق المجال عن ذكر أسمائهم مشكورين ، فلن يضيق عن الضراعة إلى الله تعالى أن يجزيهم عن الحق ومحبى الحق خير الجزاء ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

***

(١) برياسة صديقنا الـكريم الأستاذ محمود خليفة ، الأستاذ بكلية الشريعة ، والأمين العام لجبهة علماء الأزهر ، وواحد الفئة القليلة التى رفعت رأس الأزهر عالياً فى البعوث الاسلامية الحديثة .

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

حقوق الملك

* *

(١) انظر جواب الأميرة ص ٤٢

امتحان الله وامتحان الملوك

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ
إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ

وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ

[سورة طه]

درجات النّاس

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق إلى المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال : بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. [أخرجه الشيخان]

أول القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق

اقرأ وربك الأكرم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ❁ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ❁ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ❁
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ❁
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ❁
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ❁

الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم

وآخره

بسم الله الرحمن الرحيم

واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ
۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۞ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ
۞ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ
۞ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۞

ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون

إلى ملك الملوك

سبحانك اللهم مالك الملك . تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير . إنك على كل شيء قدير .

سبحانك سبحانك . ذا الجلال والإكرام والطَّوْل والإنعام . لانحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . لك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحكم وإليك المصير . تباركت ربنا وتعاليت . رفعت وخفضت وبسطت وقبضت وحكمت فعدلت وتنزهت أن تُسأل عما فعلت . وكيف . وأنت القاهر فوق عبادك وأنت الحكيم الخبير .

ومع أنك ربنا ذو العرش المجيد والفعال لما تريد . حرمت الظلم على نفسك وجعلته بين الملوك محرما . وأرسلت إلينا رسلك فضلا منك وكرما . ثم أورثت الكتاب الذين اصطفيت من عبادك . فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذنك . ذلك هو الفضل الكبير .

مولاى

إليك يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ترفعه . وهذه كلمات في الدعوة إلى سبيلك والجهاد فيك . هي جهد المقل وبضاعة المجهود . يتوسل بها إليك ويتجر بها معك عبدٌ من عبادك يبتغي وجهك ودرجة عندك . فإن ترفعها فذلك بعض فضلك على عبدك وابن عبدك وإن كانت الأخرى فوعزتك وجلالك لا أبرح واقفا ببابك أناديك مع السائلين بما لقنته أبانا من قبل « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ثم نناجيك بما ألهمته نجيك من بعده « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين »

عبدك أبو أمامة

إلى السادة الملوك

سلام الله عليكم ورحمته

وبعد، فقد خصكم الله بكرامته، وأوجب على الرعايا طاعتكم بعد طاعته، إذ جعلكم حماه في بلاده وظلّه الممدود على عباده، بكم يمتنع حريمهم وينتصر مظلومهم وينقمع ظالمهم ويأمن خائفهم. ومن أجل ذلك قالت الأوائل: إمام عادل خير من مطر وابل، وقالت الحكماء: عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان. فالسعيد منهم من رضيتم عنه في رضا الله والشقي منهم من سخطتم عليه في غضب الله، والأمم تبلغ بهمتكم قمة المجد بإذن الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما السعيد منكم فما أجلّ مكانته، وما أعظم في الدارين درجته، وإن من درجته أن يكون في أعلى عليّين مع من آتاهما الله الحكم والنبوه وجعلها للملوك إماما وقدوة: داود وسليمان عليهما السلام. ذاك خليفة الله في أرضه، وهذا الذي وهب الله له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وحسبكم من درجات الفضل والكرامه أن المقسطين منكم على منابر من نور يوم القيامه.

وهل أتاكم هداكم نبأ الأسفلين من الرعايا؟ إذ ركبوا بحور الظلم والظلمات في سفائن باسم الشيطان مجراها ومرساها. ارتدوا فيها فراعنة وتمردوا فيها على الربانيه، ثم خرقوا أسفلها وأنتم العالون ووقعوا في حدود الله وأنتم عليها قائمون. وقد بلغ من أمرهم أن سخروا من الناصحين حتى استيئسوا وهزئوا بالراشدين حتى أبلسوا! فلم يبق في النجاة من أمل إلا أن تأخذوا بسلطان الله على أيديهم قبل أن تهلك جميعا بشؤم معاصيهم. وحسبكم من النصر وعلوّ الشأن أن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وهذا كتيّب يؤدي بعض حقكم من الأدب في معاملتكم، ضارعا إلى الله تبارك وتعالى أن يجعل في حياتكم حياةً للأمم وفي عزماتكم بعثا للهمم، وفي قدوتكم تجديدًا لمكارم الأخلاق

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أيدكم الله بروح منه وهدى بكم إليه صراطا مستقيما. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إلى الرعايا

إخوانى : السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد ، فقد بلغنا من سوء الحال ، وموجبات الدمار والنكال ، بشهادات بيننا وخطوط أيماننا — مبلغاً يعجز عن وصف قليله الواصفون ، وينقطع دون عده الحاسبون ...!

عدنا إلى الجاهلية الأولى مبتدعين إليها جاهلية أخرى ، فيها من فنون الموبقات وضروب المنكرات ، ما لم يكن ليخطر لإنس ولا جن على بال ..!! فلا عجب أن أصبحنا على شفا جُرف هار من النار والعار وغضب الواحد القهار ، الذى يُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »

وسبب هذه المصائب كلها — ولا ريب — أننا فقدنا أعظم قاعدة من قواعد الإيمان والنصر، وأقوى دعامة من دعائم العزة والكرامة ؛ فى الدين والدنيا والآخرة والأولى .! فقدنا قاعدة التناصح والتواصى بين الراعى والرعية ، والحاكم والمحكوم ، والرئيس والمرءوس ؛ إلا رسوماً ومظاهر لا تغنى فتيلا ! ومشى كل من الفريقين مكبًّا على وجهه لا يبالى ..!

لا يُهم الأصاغرَ إلا مرضاة الأكابر ، ولا يهم الأكابر إلا أنفسهم وما زُين لهم من سوء العمل فرأوه حسنا ، وغفلوا أو تغافلوا أنهم جميعاً مسوقون إلى الهاوية

ولا محالة ! ولو قرءوا فى تاريخ الأندلس ما يقرؤه تلاميذ المدارس لكان لهم منه أعظم عبرة وأصدق شاهد ..!

لقد كانت بلاد الأندلس قبلة الأنظار علماً وحضارة وبهجة ومجداً ، لكن أمراءها ابتلُوا بالتخاذل والطمع حتى تسمى منهم أربعة بأمير المؤمنين فى وقت واحد وفى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً فى مثلها ، نتيجة لفقدان قاعدة التناصح ! وكان العدو لهم بالمرصاد ينقص بلادهم من أطرافها بلداً بلداً ، حتى كانت الخاتمة مآسىَ شتى : من التنصير والتقتيل والتحريق والسبى ، إلى أهوال يذكرها التاريخ بالحسرة والندامة ! وترديد قول القائل :

أعطيت ملكاً فلم أُحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يُخلَعه

إنه لا منجى لنا : سادة ومسودين ، حكاماً ومحكومين ، من خزى الدنيا « وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى » إلا إذا استعدنا بحزم وعزم وقوة هذه القاعدة التى فقدناها ، فتناصحنا وتكاشفنا وتعاونا على البر والتقوى ولم نتعاون على الإثم والعدوان ، وعلم كل من الراعى والرعية أن فى صلاحه صلاحاً لصاحبه ، فكاشفه بجلية أمره ولم يكتمه من الحق شيئاً .

أما أن يكون النصح مقصوراً على روّاد المساجد والجمعيات وما إليها فذلك هو الضعف الذى لا ترفع به أمة رأسها بين الأمم ، ولا تنال به عزًّا ولا مجداً ..!

* * *

على هذه القاعدة القوية المتينة ، قاعدة التناصح بين الراعى والرعية والمحكوم والحاكم ـ بُنى الدّستور السماوى والقانون الإلهى ، وعليها مضى أسلافنا الأولون فكانوا خيرَ أمة أُخرِجتْ للناس فملأَت الدنيا عدلاً وهدًى وعلماً ونوراً.

هذا الخليفة الأول رضى الله عنه يبنى سياسته على هذه القاعدة ، فيرغب إلى رعيته أن تسدّده وتقوّمه إذا اعوجّ ، ثم يذهب إلى أبعد من هذا فيشترط لطاعتهم إياه أن يطيع الله فيهم ، فيقول حينما ولى الخلافة بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد فإنى قد وليت أمركم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إنّ أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وهذا الفاروق الأول رضى الله عنه ينهج نهج صاحبه لا يحيد عنه قولاً وعملاً.

خطب غداة خلافته خطبته الرائعة التى تعد بحق وثيقة تاريخية وعهداً مسئولا ، فقال فيها :

... واعلموا أن شدتى التى كنتم ترونها ازدادت أضعافاً على الظالم والمعتدى ، والأخذ لضعيف المسلمين من قويهم .. فاتقوا الله وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحةَ فيما ولأنى الله من أمركم ... أيها الناس ، إنه لم يبلغ ذو حق فى حقه أن يطاع فى معصية الله ...

وكان رضى الله عنه رجاعاً إلى الحق ، يرغب إلى الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينوا له وجه الصواب إن رأوا منه انحرافاً عن القصد . قال مرة فى خطبته :

أيها الناس ، إن أحسنت فأعينونى وإن صدَفت فقوّمونى ، فقال له رجل من أخريات المسجد : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناهُ بسيوفنا. فسرّه ذلك . وما ظنكَ بمن كان يقول : رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا ؟!

ثم نهج بقية الخلفاء الراشدين والولاة العادلين نهج الصديق والفاروق ، فنصحوا

وانتصحوا ، وشجعوا الرعيـة على التطبيق العملى لما شدد فيه الدُّستور السماوى من وجوب النصح لهم والطاعة ، فى مثل قوله صلوات الله وســـلامه عليه : « الدين النصيحة لله ولـكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وقوله عليه الصلاة والسلام : « اسمعوا وأطيعوا و إن استعُمِل عليـكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتابَ الله تعالى »(١)

* * *

ثم خلفت من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون و يفعلون ما لا يؤمرون ! فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ؛ ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل(٢).

وليس العجب أن يكون هؤلاء الخلوف قوّالين غير فعّالين ، و إنما العجب أن ينخدع بهم من يرى أفعالهم تـكذب أقوالهم ، بل يرى أقوالهم يكذب بعضها بعضا !

صلاح الراعى والرعية

اعلموا ـ أصلحكم الله وسددكم وهداكم وهدى بكم ـ أن صلاح كل من الراعى والرعيـة يؤثر فى الآخر تأثيراً بليغـاً ، و إن كان صلاح الراعى فى رعيتـه أبلغ أثراً وأهدى سبيلاً . وليس من العدل والإنصاف فى شىء أن نتجاهل قوة الرابطة بين الجانبين كليهما فنذكر أثر واحد دون صاحبه .

أما تأثير صلاح الراعى فى الرعية فإنا نرى رأى العين تقليدَ الأبناء للآباء والضعفاء للأقوياء والخدم للسادة ، غريزة هادية وسنة جارية فى الأفراد والأمم . ومن أثر

---

(١) حديثـان صحيحان مشهوران : روى الأول الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وروى الثانى مسلم عن تميم بن أوس رضى الله عنه .

(٢) اقتباس من حديث مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه .

هذا التقليد ما كان يجرى على ألسنة الناس من أحاديث البناء والعمارة فى عهد الوليد ابن عبدالملك ، لولعه بتشييد المبانى وشغفه بفنون العمارة ؛ ومن أثره ما كانوا يتساءلون عنه من الورد وقيام الليل فى عهد عمر بن عبد العزيز — أو الفاروق الثانى كما سميناه فى هذا الكتاب — لزهده فى الدنيا وشدة إقباله على الآخرة . وإنها لمناسبة كريمة نروى لكم فيها طريفة من طرائفه التى تكشف عن همم له لا تبارى :

عن دُكين الراجز قال : أتيت عمر بن عبدالعزيز بعد ما استُخْلِف ، أستنجز منه وعداً كان وعدنيه وهو والِي المدينة ، فقال لى : يا دكين إن لى نفساً توّاقة ، لم تزل تتوق إلى الإمارة ، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة ، فلما نلتها تاقت إلى الجنة ، وما رزأت من أموال المسلمين شيئاً ، وماعندى إلا ألفا درهم ، فاختر أيهما شئت — وهو يضحك — فقلت : يا أمير المؤمنين ، قليلك خير من كثير غيرك فاختر لى أنت ، فدفع إلىّ ألفاً وقال : خذها بارك الله لك فيها . فابتعت بها إبلا وسقتها إلى البادية ، فرمى الله فى أذنابها بالبركة بدعوته حتى رزقنى الله ما ترون .

لا جرم أن الناس على دين ملوكهم ، وأن الملوك منهم بمنزلة القلب من الجسد يصلح إذا صلح ويفسد إذا فسد .

وأما تأثير الرعية فى الراعى فلأنه واحد منهم ، يرى وحشة وكربة فى شذوذه عنهم ، ولذا لا يرتع فى مراتع الغَواية إلا إذا انحدروا إليها ، ولا يسير فى طريق العَماية إلا إذا أوضعوا فيها . ومن هنا قال عبد الملك بن مروان : أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم سيرة أبى بكر وعمر نسأل الله أن يعين كلاًّ على كل .

وقال قائل لعلى كرم الله وجهه : ما بال الفتن قد قامت فى عهدك وعهد عثمان ولم تقم فى عهد أبى بكر وعمر ؟ فقال رضى الله عنه — وكان طويل الباع فى الأجوبة المسكتة —

كان أبو بكر وعمر أميرين على مثلى ومثل عثمان ، وأما أنا وعثمان فأميران على مثلك .

وسمع الحسن البصرى رحمه الله رجلا يدعو على الحجاج ، فقال : لاتفعل يرحمك الله ! إنكم من أنفسكم أتيتم ، إننا نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن تليكم القردة والخنازير ، فقد روى أن النبى ﷺ قال : « عُمّالكم كأعمالكم وكما تكونون يولَّى عليكم »[1] ولقد بلغنى أن رجلا كتب إلى بعض الصالحين يشكو إليه جور العمال ؛ فكتب إليه : يا أخى وصلنى كتابك يذكر ما أنتم فيه من جور العمال ، وإنه ليس ينبغى لمن عمل بالمعصية أن ينكر العقوبة ، وما أظن الذى أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب . والسلام .

وجملة القول أن صلاح الرعاة ينفعكم بإذن الله تعالى ويكون عوناً على صلاحكم واستقامتكم ، كما أن صلاحكم ونصحكم عون لهم على الخير والهدى، وأجدر ألا تسوء العاقبة وتحكم الفوضى .

لا يصلح الناس فوضى لا سَراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ماصلحت فإن تولت فبالأشرار تنقادُ

ولو علموا ما لكم من الفضل فى النصيحة لدعوكم إليها شاكرين لكم ، لأنكم بالنصيحة لهم تثبتون أقدامهم وتغيظون أعداءهم ، وتكونون سداً منيعاً أن يُمسُّوا من أحد بسوء ولاسيما إن عرفوا للنصح قدره وأثره فاستمعوا له ... ولا يحملنكم إنكار هذا الفضل واستثقاله وكراهيته على ألا تنصحوا لهم ، وتبينوا ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة كما سنبين لكم فى *حقوق الملك*

---

(١) قال أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك : لم أزل أسمع الناس يقولون : أعمالكم عمالكم ، كما تكونوا [بحذف النون] يول عليكم — إلى أن ظفرت بهذا المعنى فى القرآن . قال الله تعالى : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » .

ولا تستقلوا كلمة طيبة فى سبيل الخير والهدى ، ولا كلمة خبيثة فى طريق الشر والضلال ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوِى بها فى جهنم »

وإذا كان هذا شأن الكلمة الطيبة فما بالكم بالأعمال الطيبة المسددة المباركة ؟ إنها ستحمل الرؤساء والحكام على أن يتقربوا إليكم ويرعَوا حقوقكم ، ثم تحملكم بعد ذلك على أن تؤدوا حقوقهم كاملة غير منقوصة ، ضارعين إلى الله أن يحسن إليهم كما أحسنوا إليكم ، جزاءً وِفاقا .

* * *

والمقصود الأول من هذا الكتاب هو إشاعة التناصح بين عليا الطبقات ودنياها وكشف الغطاء عن هذه الحلقة المفقودة التى قطعنا بفقدها ما أمر الله به أن يوصل ، والعملُ ما استطعنا على أن نعيدها قوية متينة إن أردنا أن نكون أمة مرهوبة الجانب عزيزة السلطان ، مثلها كمثل البنيان يشد بعضه بعضا .

سياسة المكر والخديعة

لقد سخر الشيطان منا ، وفرق أعوانه بيننا حتى قطّعونا أحزاباً وشيعا ، ونجحوا نجاح الأسفلين فى إبعاد الشقة بين الطبقات جميعا ، وإن شئت فقل بين الحاكمين والمحكومين والرعاة والرعية !

وأعظم ما عملوا له وخدعونا فيه هو قطع صلة الإيمان الروحية التى رأوها بحق أساس عزنا ونصرنا والتراحم بيننا ، والقوة والعظمة والنعيم فى الدين والدنيا والآخرة والأولى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » « وكانَ حقًّا علينا نصرُ المؤمنين » « محمدٌ رسول الله والذينَ مَعَه أشداءُ على الكفارِ رُحَماءُ بينَهم » « قل من حرَّمَ زينةَ اللهِ

التى أخرجَ لعبادِهِ والطَّيباتِ منَ الرزقِ قل هى للَّذينَ آمنوا فى الحياةِ الدُّنيا خالصةً يومَ القيامةِ كذلكَ نفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون . قل إنما حرَّمَ ربى الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بَطَن والإثمَ والبغىَ بغير الحقِّ وأن تُشركوا بالله ما لمْ ينزِّلْ بهِ سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تَعلمونَ » .

ومن أجل أن يلبسوا علينا ستروا فضائح الغدر والمكر بما لا يغنى من الجد والمجد شيئا ! استبدلوا بالصلة الروحية صلاتٍ أخرى ظاهرية ، وسمَّوها بأسماءٍ خلابة خداعة تلتقى مسمياتها جمعاء عند عبادة الأشخاص والشهوات ومشايعة الإلحاد والوثنية ، باسم العلم والفن والحضارة والمدنية !

ثم ماذا تريدون من قوانين الأرض وقد عارضت شريعة الله عالم الغيب والشهادة وصدرت عن وحى الشيطان وحزبه ، ثم لم تستح بعد ذلك أن تضلل الناس وتريدهم على أن يصدقوا بأن دين الدولة إنما هو الإسلام ؟! « كَبُرَت كَلِمةً تخرجُ من أفواهِهِم إن يقولونَ إلاَّ كذباً » .

هذه الصلات الفاجرة الغادرة ، الماجنة المستهتَرة : صلات التملق والاسترضاء ، والمخادعة والرياء ، إن لم نتعاون على محوها فإن مآلنا ولا محالة هو مآل الأندلس الدارسة !

* * *

وعلى حسب التناصح وإخلاص الفرد فيه لنفسه وأمته تكون درجته ؛ وعلى قدر استماع كل منهما للنصح وانتفاعه به ، واقترابه من المثُل العليا للكمال الإنسانى تكون سعادته .

وهذه كلمات فى درجات الأفراد والأمم ، نضرع إلى الله تعالى أن ينفع بها من أحب أن يكون عضواً حياً فى جسد الرعية ، ولبِنة سليمة فى بناء أمة رشيدة قوية ؛ كما نضرع إليه تعالى أن يلهمنا الرشاد والصواب ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه « أولئكَ الذين هداهمُ اللهُ وأولئك هم أولُو الألبابِ » .

درجات الافراد

للأفراد والجماعات مُثُل عليا ، هم رسل الله وأنبياؤه صلوات الله وسلامه عليهم ؛ لأن الله سبحانه هو الذى اصطنعهم لنفسه واصطفاهم لرسالته ، واجتباهم أمناء على وحيه وسفراء إلى خلقه ؛ فلا عجب أن عصمهم من كل رذيلة وجَمَّلهم بكل فضيلة ، وبلَّغهم ذروة الكمال الإنسانى الذى لا مطمع لأحد فيه بالغاً ما بلغ من مراتب الفضل والكرامة.

وإذا كان الله قد فضل بعض النبيين على بعض ورفع بعضهم درجات ، فذلك على ما جرت به سنته واقتضته حكمته من التفضيل فى الخلق والتقسيم فى الرزق . وله جل شأنه الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

***

والناس بعد الأنبياء فى الدنو من الكمال الإنسانى درجات شتى ؛ وإن كانوا كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة »[1]

تعد المائة بل المئين من الإبل فلا تقع على الراحلة النجيبة ، الحسنة المنظر الكريمة المخبر ، التى استوت خَلقاً وخُلقاً ، فلا تجد فيها ضعفاً ولا عيبا ، ولا ترى فيها عوجاً ولا وجعا — فكذلك الناس ، يعييك منهم العد والإحصاء فلا يقع بصرك أو بصيرتك — إلا ما شاء الله — على كامل مكمل ، ترضى سجاياه كافة ، وتحمد أحواله عامة ، بل لابد من قذًى فى العين أو شجًى فى الحلق ، أو أذًى

(١) رواه الشيخان عن ابن عمر وأوله « إنما الناس كالابل ... » إلخ ، والمائة بالجر على أن الوصف مفرد وبالرفع على أن الوصف جملة .

فى النفس : هذا تقى نقى إلا أنه يخدع ، وهذا قوى سريّ إلا أنه يَخدع ، وهذا عالم كبير لكنه ضعيف ! وهذا حاكم خطير لكنه يحيف ، وهذا شجاع كريم غير أنه فاسق ، وهذا مفكر عليم غير أنه ينافق . وقل ما شئت من مدح وثناء ، ولكن لابد لك من الاستدراك والاستثناء . وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى :

والناس — إلا قليلا ممن عصم الله — مدخولون فى أمورهم : فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة ، وذوالصدق غير محترس من حديث الكَذَبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفَجَرة ، والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر ...

وكأنه — كما قال أبوحيان التوحيدى — لابد من نقصان يعترى الإنسان فى كل زمان ومكان ، لئلا يستبد باستطاعته ، ولا يغتر بكماله ، ولايختال فى مِشيته ، ولا يتهكم فى لفظه ، ولا يتحكم على ربه ، ولا يعدو على بنى جنسه ؛ ولئلا يعرى من مذكر بالله ، وزاجر عن أمر الله ، وداع إلى ما عند الله ، ومحذر من عقاب الله ، ومرغب فى ثواب الله ...

ولقد افتنّ الأدباء والشعراء فى التعبير عن عزة الكمال فى الناس وقلة الأخيار منهم حتى قال قائلهم :

ما أكثر الناس ، لا ، بل ما أقلَّهم ... الله يعلم أنى لم أقل فَنَدا[1]
إنى لأُغمض عينى ثم أفتحها ... على كثير ولكن لاأرى أحدا

وقال أبو تمام :

إن شئت أن يسودّ ظنك كله ... فأجِله فى هذا السواد الأعظم

(١) الفند : الكذب وضعف الرأى .

إلى شواهد كثيرة يحفظها أهل الأدب والبيان .

أبدع الشعراء والأدباء فى تصوير هذا المعنى ما شـاء الله أن يبدعوا ، ولـكنهم لم يخلُصوا إلى مثل هذه البلاغة النبوية ، والحكمة الربانية ، التى تنبع من جلال الحق ، وتفيض من مَعين الصدق ، وتجلى الحقيقة للعِيان سـاطعة مشرقة . وأين مشاعل الشعراء من مصابيح الأنبياء ؟

المثل الكامل

ثم إن الناس يختلفون فى تقدير الـكمال اختلافاً كثيراً ، تبعاً لعصورهم وتربيتهم وبِيئاتهم . ولقد أولع الإنسان - ولايزال - بتصوير مثل كامل ينزهه عن كل نقص بشري ويمنحه كل جمال إنسانى ، ثم يتخذه قدوته وغايته ، ولـكن - ويا للأسف - لا يزال عاجزاً عن مداناة هذا المثل فضلا عن تحقيقه .

والـكامل عند علماء الأخلاق والتربية من قوى جسمه حتى أصبح آلة سليمة فى فعل الخير ، وعدة قويمة فى انتاج البر ، ونضج عقله وحصُف حتى حال بينه وبين الفساد ، وسلك به سبيل الرشاد ، ولطفت روحه وسمت حتى بوأته مقاعد الصديقين .

وللصوفية مجال كبير فى تصوير الإنسان الكامل . وصفوة القول فيه عندهم أنه من يرقى بنفسه ويسلك طريق الأنبياء والمقربين حتى يكون من الواصلين ، وحينئذ يذوق ما لا يذوق الناس ، ويرى ما لا يرَون ، ويعلم ما لا يعلمون ، ويشير إلى هذا قوله تعالى : « واتقوا اللهَ ويعلِّمكم الله »

وقد يكون من الخير أن نذكر نماذج موجزة من الـكمال الإنسانى ، لمن يريد

أن يأخذ نفسه بها أو بأحدها . وييسر السبيل إليها صدقُ الرغبة ، ومضاء العزيمة ، فى قليل من المرَانة والصبر :

١ — قال على رضى الله عنه فى صفة المتقين :

... فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزماً فى لين ، وإيماناً فى يقين ، وحرصاً فى علم ، وعلماً فى حلم ، وقصداً فى غنى ، وخشوعاً فى عبادة ، وتجملاً فى فاقة ، وصبراً فى شدة ، وطلباً فى حلال ، ونشاطاً فى هدى ، وتحرجاً عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحات وهو على وجل ؛ يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر.. مقبلا خيره ، مدبراً شره ، في الزلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور . . نفسه منه فى عناء والناس منه فى راحة ..

٢ — وقال الحسن البصرى يصف عليا رضى الله عنه :

لم يكن بالسَّروقة لمال الله ، ولا بالنئومة فى أمر الله ، ولا بالمَلولة فى حق الله ، أعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما له فيه وما عليه ، حتى قبضه الله إليه ، ففاز برياض مونقة وأعلام مشرقة . أتدرى من ذاك ؟ ذاك على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

٣ — وقال عبد الواحد فى وصف الحسن ، وكان صاحبه :

كان إذا أمر بشىء أعملَ الناس له ، وإذا نهى عن شىء أتركَ الناس له . . . لم أر أحداً قطُّ سريرتُه أشبه بعلانيته من الحسن .

٤ — وقال أحد الحكماء يصف صاحباً له :

إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأسَ ما أعظمَه عندى صغرُ الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ؛ وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه مَؤونة

ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة أو منفعة ... وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة ؛ وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من الولى ولا يغفُل عن العـــدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته .

وأيّا ما كان الأمر فالكمال على أنحاء ودرجات ، ومحال أن يجتمع فى كل نواحيه إلا للأنبياء والمرسلين — كما قلنا آنفا — والناس بعد هؤلاء على حظوظ متفاوتة على حسب اقترابهم أو ابتعادهم من الكمال والكاملين « فمنهم ظالمٌ لنفسِه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ ذلكَ هوَ الفضلُ الكبير » .

ثم إن الكمال أمر نسبىّ ، فرب مفضول فى الأولين يكون مثلا كاملا فى الآخرين . ومهما يصف الواصفون من ضروب الكمال وسبله ففى كتاب الله وسنة رسوله هدًى ونور ، وشفاء لما فى الصدور ، وحسبنا آية البر وسورة العصر [1] « ليس البرَّ أن تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المَشْرِقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيِّين وآتى المالَ على حُبِّه ذوى القُربى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأْساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ أولئكَ الذينَ صدقوا وأولئك همُ المتقونَ » « والعصر . إن الإنسانَ لفى خسر . إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحق وتواصَوْا بالصبر » .

***

(١) يؤثر عن الشافعى رحمه الله قال : لو لم ينزل من القرآن غير هذه السورة لكفت الناس.

درجات الامم

سجل التاريخ شهادة الكافة بأن المثل العليا لأمم الأرض قاطبة هم المسلمون الأولون فى عهودهم الثلاثة الأولى . وذلك مصداق قوله تعالى « والسابقونَ الأوَّلون من المهاجرينَ والأنصارِ والذينَ اتبعوهم بإحسانٍ رَضىَ الله عنهم ورَضُوا عنه » وقولِه صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخارى ومسلم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... »

لقد علم النـــاس جميعاً كيف أوذى أصحاب رسول الله ﷺ فى سبيل الله ؟ وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ثم صبٌ عليهم العذاب من كل صوب ، واصطلح عليهم البلاء من كل أوب ؛ فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بدينهم ، وتصديقاً لنبيهم ، وبذلا المهج والأرواح ابتغاء مرضاة ربهم . فللمهاجرين منهم فضل الفداء والهجرة ، وللأنصار منهم فضل الإيواء والنصرة ؛ وبهم جميعا أعز الله الإسلام والمسلمين ، وأعلى كلمته إلى يوم الدين ، وضرب المثل سيّاراً فى العالمين « وكفى بالله شهيدا » (١)

وإذا كان الصحابة رضى الله عنهم أرفع الناس بعد النبيين درجة وأعلاهم مكاناً بشهادة الله ورسوله ، فلا عجب أن يعلن سيد الأوفياء ﷺ بفضلهم ، ويحذر من مقتهم وسبهم ، ويقول فيما رواه الترمذى : « اللهَ اللهَ فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

---

(١) تلميح إلى سورة الفتح وما فيها من ثناء الله عليهم وضربه المثل بهم .

ويقول ﷺ فيما رواه الشيخان : « لا تسبوا أصحابى ! فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه »(١)

ولعل فى هذا مزدجراً لقوم يتناولون بعض الصحابة بالذم والتجريح ، فيتعدّون حدّ الأدب ، ويتناسَوْنَ أنهم بهذا يؤذون الله ورسوله !

ومن أدب الإجابة عما وقع بين الصحابة رضى الله عنهم ما يروى عن الحسن البصرى رحمه الله : تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطخ بها ألسنتنا . وذكروا عنده مرة فقال : رحمهم الله ! شهدوا وغبنا ، وعلِموا وجهِلنا ، فما اجتمعوا عليه تبعِنا وما اختلفوا فيه وقفنا .

لا نقول بعصمة الصحابة رضوان الله عليهم ، فتلك منزلة الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، ولكنا نقول : إن لهم علينا حقوقا وذمما هى — ولا مراء — من حقوق النبى ﷺ على سائر أمته ... ومنها أن نقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم ؛ فإن لم نتدارس الحسنات ، فلا أقل من أن نتغاضى عن الهفوات ، فإنها ليست شيئاً مذكوراً بجانب ما قدموا لله ورسوله . فإن لم يكن بدّ من ذكر حقائق التاريخ واستنباط عبره وعظاته ، فلتكن مقرونة بأدب الاعتذار ، مع الإجلال والإكبار ، وذكر فضل الصحبة التى لا عَدل لها ولا كِفاء إلا رضوان الله عز وجل . ولعلك واجد فى قصة عمرَ وحاطب وأمثالها ، ما يشفى صدرك ويثبت فؤادك ويطمئنك لما نقول :

بعث حاطب رضى الله عنه إلى ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمر النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فلما أظهر الله نبيه على الأمر اعتذر بأنه ما فعل فعلته التى فعل ؛ إلا

---

(١) المد : مكيال . وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ، ورطلان عند أهل العراق . والنصف والنصيف : أحد شقى الشىء .

ليصطنع إلى قريش يداً يحمون بها قرابته عندهم ، إذ لم يكن من أنفسهم و إنما كان حليفاً لهم . فصدّقه صلوات الله وسلامه عليه وقبل عذره ، ولكن همّ به الفاروق وقال كلمته المأثورة : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ! فأجابه ﷺ : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وأنزل الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عَدوِّى وعدوَّكم أولياءَ تُلْقون إليهم بالمودَّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحقِّ » الآية . والقصة مبسوطة فى الصحيحين وفى السيرة والتفسير ، فارجع إليها إن شئت .

هذا ، وليس ثمة خلاف فى أنهم رضوان الله عليهم على منازل مختلفة ، ومراتب متفاوتة « هم درجاتٌ عند الله واللهُ بصيرٌ بما يعملون » « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وَعدَ اللهُ الحسنى والله بما تعملون خبيرٌ » وليس ثمة خلاف كذلك فى أن ذوى المكانة فيهم وأصحابَ المشاهد منهم : كأهل بدر وأُحُد والمبايعين تحت الشجرة ، ومن بشرهم النبى ﷺ أو دعا لهم ، أو ائتمنهم على كتابة وحى الله ، وتبليغ رسالات الله لا خلاف أن كل واحد من هؤلاء أعلى منزلة وأجل قدراً ممن بعده كائناً من كان . قال رجل للمعافَى بن عمران : أين عمر بن عبد العزيز من معاوية ؟ فغضب غضباً شديداً وقال : لا يقاس بأصحاب النبى ﷺ أحد ، معاوية صاحبه ، وصهره ، وكاتبه ، وأمينه على وحى الله .

وإنما الخلاف فى عوام الصحابة ومن ليس لهم من فضيلةٍ إلا مجرد المشاهدة . والذى نختاره أن هؤلاء على عظم فضلهم لا يستوون وخواص الأمة من أعلام الدين ، وأئمة الهدى ، والقائمين فى الناس بالقسط ، فإنا لا نستطيع أن نسوّى بعمر بن عبد العزيز من لا يملك من فضل السبق إلا صحبة يوم أو بعض يوم . وإلى هذا

يومئ قول ابن عبد البر ، مخالفاً الجم الغفير من أهل العلم : ومن الآثار التي تعضُد ما ذهبنا إليه ما رواه الترمذى بسند حسن عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مثل أمتى كمثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره » وما ذنب من تأخر به قرنه ، ولعله إن تقدم به كان من السابقين الأولين ؟ إنه إن فاته أن يكون فى خير القرون فلن يفوته أن يكون باستباق الخيرات والمسارعة فى الطاعات « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّديقين والشهداءِ والصالحينَ وحسُنَ أولئك رفيقا » .

ثم اقتدى التابعون بهدى الصحابة ، كما اقتدى الصحابة بهدى رسول الله ﷺ فكان منهم الهداة الراشدون والحكماء الربانيون ، الذين ملئوا الدنيا هداية ونورا ، حتى سارت بذكرهم الركبان ، وسُجلت مآثرهم فى صفحات الزمان ؛ وكان منهم القادة المحنّكون ، والفاتحون المظفَّرون ، والمجاهدون المخلصون ، ممن أعز الله بهم الإسلام ، وهدى بهم إلى دار السلام ؛ وكان منهم أئمة الورع وملوك التقى ، ممن ذلت لهم الدنيا بعلوهم عليها ، وعزت بهم الآخرة لاستباقهم فيها ، وتزلف إليهم الخلفاء والأمراء لما استولَوا على عروش القلوب ، وهى أعز مراماً وأجل مقاماً من عروش الخلافة ومقاعد الملك ؛ وكان منهم من يقتل فى سبيل الله ولسان حاله يقول :

ولست أُبالى حين أُقتَل مسلما على أىّ جنب كان فى الله مَصْرَعى
وذلك فى ذات الإله وإن يَشأْ يُبارِكْ على أوصال شِلو مُمزَّع (١)

ثم استار أتباع التابعين بسيرة من قبلهم ، فى العلم والعمل ، والورع والتقى ، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؛ إلى أن ظهرت فى حدود

(١) الأوصال جمع وصل وهو العضو ، والشلو بالكسر الجسد ، والبيتان لخبيب بن عدى رضى الله عنه . قالها لما أجمع المشركون قتله فى غزوة الرجيع بعد أن صلى ركعتين ، فكان أول من سن الصلاة عند القتل .

العشرين ومائتين بعد انقضاء القرن الثالث ضروبٌ من البدع والضلالات لم تكن من قبل [1] فأطلقت المعتزلة ألسنتهم ورفعت الفلاسفة رءوسهم ، وامتُحِن العلماء والأئمة بفتنة خلق القرآن ، والخلافِ في المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، والجدلِ في الأُغلوطات التي لا يجنى المسلمون من ورائها إلا بلاءً وشرا ! فإذا كانوا في نقص من أمرهم ، وضعف من بنائهم فبما فتحوا للعدو من ثغور دخل عليهم منها ، فلم يستطيعوا له منعا ، ولم يملكوا لعدوانه دفعا ! وإذا كان صلاح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها ، فلا منجاة لها من ورطتها إلا برجوعها إلى كتاب ربها ، واقتدائها بهَدْى نبيها ، واستمساكها بسيرة الراشدين من أسلافها .

ونحن لا ننكر أن أحداثاً حدثت في عهد سلفنا الصالح قد يكون لها آثارها إلى وقتنا هذا ، ولا نستطيع أن نغالط في حقائق التاريخ الناصعة ، ولكنا نقول إنها كانت ضيقة محدودة ، و إنما أبعد شقتها وأوسع رقعتها أعداء الإسلام ، والدخلاءُ فيه ممن يكيدون له كيدا ، فكان حقاً محتوماً على الخلف أن يستيقظوا لهذه الأحداث وينتفعوا بعبرها ، فلا يتورطوا في أمثالها وهم ينقمونها من أسلافهم ، ولا يتشدقوا بزخرف القول وزوره وقلوبهم من الخير هواء !

* * *

أما بعد ، فقد صدق الله رسوله ﷺ إذ بعثه — كما روى البخارى — في خير قرون بنى آدم ، وحمى صحابته وتابعيهم ، والقرن الثالث الذى يليهم أن تفشوَ فيهم ضلالة ، أو تكثر فيهم جهالة ، أو يسكتوا على منكر « فخلف من بعدهم خَلف أضاعُوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوفَ يَلقوْنَ غيًّا » .

---

(١) حقق صاحب الفتح أن بين البعثة وآخر الصحابة موتاً ، وهو أبو الطفيل ، مائة سنة ونيفا ، وأن قرن التابعين بين السبعين والثمانين وقرن تابعى التابعين نحو من خمسين ، وأن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش في حدود العشرين بعد المائة .

حاضر الامم

ولندع الكلام — ولو إلى حين — فى الأمم الخالية بما لها وما عليها « لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبت » ولنضع بين يدى الملوك والولاة والزعماء ومن يُهمهم شؤون الإصلاح ومن يخافون على أنفسهم عاقبة الفساد والفوضى ، لنضع بين أيديهم جميعاً نَموذجاً موجزاً من أحوال أممنا الحاضرة ، يرشد العام والخاص إلى درجاتنا فى الدنيا والآخرة .

ولنعلم قبل هذا العرض أن الدنيا الصالحة وسيلة إلى الدار الآخرة وطريق إليها ، فهى إذاً من الدين لا تنفصل عنه قِيد أنملة . ولن تصلح أخرى الأفراد والأمم إلا إذا كانت دنياهم صالحة وأعمالهم خيِّرة . ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد والترمذى عن أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه فى حديثه عن النبى ﷺ قال : « إنما الدنيا لأربعة نفَر ؛ عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ؛ وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهوصادق النية ، يقول لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ؛ وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ؛ وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علما فهو يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء » .

ولم يذم الله ورسوله إلا الدنيا التى تقصد لذاتها وتتخذ وسيلة للشهوات والهوى.

ومثل من يفصل الدنيا من الدين كمثل من يفصل منه العلم والسياسة . وهو إما عنيد ملحد أو ضال جاهل : لأنه إن أراد دنيا الفسق والفجور ومتاع الغرور

فتلك ليست من الدين فى شىء ، وهى وبال على صاحبها فى حياته العاجلة والآجلة . وهى موضع الذم واللعنة وغضب الله وملائكته وكتبه ورسله ؛ وإن أراد الدنيا التى يعيش الناس بها آمنين مطمئنين متمتعين بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق فتلك مقدمة النعيم المقيم والسعادة الأبدية .

وكذلك القول فى السياسة والعلوم والفنون والصناعات والفلسفات وما إليها ، إن دعت إلى الحق والخير والعزة والقوة ، فهى مما شرع الله لعباده بل جعله سبيلا إلى ذكره وشكره وقدره حق قدره ، وإن كنا لا نحصى ثناءً عليه سبحانه . وأما إن دعت إلى الإلحاد والتضليل والارتياب فيما أنزل الله على رسوله فليست من الدين فى شىء وإن سماها الضالون المضلون علما وسمّوا أربابها فلاسفة وساسة !

* * *

أما الدين فمبلغنا منه أننا نحكم بغير ما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر أو ظالم أو فاسق ، أو موصوف بهذه الأوصاف كلها بشهادة الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومن كذب الكتاب أو شك فيه فهو إلى كفره غاش منافق ، إذ تسمى باسم المسلمين ولبس عليهم وآذاهم أشد من إيذاء عدوهم بغشه وتدليسه ! والله برىءٌ منه ورسولُه !

وإذا كان مرتداً عن دينه من يستحل الكبائر ولو تسمى بأسماء المسلمين وصاهرهم ودفن فى مقابرهم ، فكيف بمن يرضاها بل يدعو إليها بل يضع القوانين لنشرها وترويجها وتقاضى المكوس عليها ويؤثرها على دين الله وقانونه ؟!

ثم ما هذا التعليم الذى لا يساوى دينُ الله فى معاهده مادة من مواد الرسم والزخرفة ؟! إنه سيخرج الناس من ظلمات الأمية والجهالة ، ولكن إلى ظلمات الإباحية والإلحاد والضلالة !

ولعل الأزهر يغضب لله غضبة يدفع بهـا العدوان على شريعته ! فإن لم يفعل فليغضب لبقيـةٍ من كرامته ! فإن لم يفعل فلا يلومنّ من مكر به أو أتى بنيـانه من القواعد !

* * *

وأما الدنيا — غير الصالحة طبعاً — فمبلغنا منها ما نرى ونسمع كل يوم بل كل ساعة من الأصدقاء والأعداء ، من مخازٍ ومآسٍ واختلال واضطراب فى سائر الشؤون والأحوال دقيقة أو جليـلة ! حتى لقد قالت أميرة من أميرات إيران فى حديثهـا مع أحد الساسة[1] : لقد فشِلتم أيها الرجال فى إدارة شؤون العالم وعجزتم عن نشر السلام بين الناس ، فجدير بكم أن تتركوا مهمة الحكم للنساء فربما كنّ أسعد حظاً منكم .

وها هم أولاء عبيد المرأة الذين يزعمون أنهم أنصارها ، يغُرونها ويغررون بها[2] ويساعدونها على ما تصبو إليه من شؤون النيابة والحكم والقضاء وما إليها ، لتكون قوّامة عليهم ! وجهلوا أو تجاهلوا حديث المعصوم صلوات الله وسلامه عليه لما بلغه أن الفرس ملّكوا عليهم بنت كسرى فقال : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »[3]

وكأنى بهم يريدون أن يبدلوا كلام الله وآياته وفطرتَه التى فطر الناس عليها ! اللهم إن النذير العُريان[4] لا يملك غير البلاغ ، وقد بلّغ وحذر وأنذر ! اللهم فاشهد .

* * *

---

(١) ونشر بالمصرى فى ٧ من رجب سنة ١٣٦٩

(٢) غرر بنفسه تغريراً وتغرة كتحلة : عرضها للهلكة ، والاسم الغرر محركة . «قاموس»

(٣) رواه البخارى وأحمد عن أبى بكرة رضى الله عنه.

(٤) كان من عادة العرب إذا رأى الرجل منهم غارة فجأتهم وأراد إنذار قومه تعرى من ثيابه وأشار بها ليعلموا أنه قد بغتهم أمر . وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل ما بعثنى الله كمثل رجل أتى قوماً فقال : رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفـة فصبحهم الجيش فاجتاحهم » . الادلاج : السير بالليل.

درجات الملوك[1]

لاريب أن أرفع الناس درجة وأعظمهم منزلة عند الله والناس — أرعاهم لحقوق الله وأنفعهم لعباده ، وأن ولاة الأمور هم أقدر النــاس على ذلك . ومن لم يجعل الله تعالى أحداً من عباده في الدنيا فوقه فهو أحق الناس بأن يكون أطوعهم لله وأشكرهم له ، وأخوفهم منه تعــالى أن يسلبه ملــكه ، أو يسلط عليه عدوه ! أو يستدرجه ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما قال سبحانه : « سَنَسْتَدْرِجهُمْ مِن حيثُ لا يَعلمونَ . وأملى لهم إنَّ كيدى مَتين »

وممن بلغ الدرجة العليا في الملوك والولاة والقائمين فى الناس بالقسط — بعد أنبياء الله ورسله — الصديقُ والفاروق الأول والثــانى رضى الله عنهم ، وأعز الإســلام والمسلمين بمن يقتفى آثارهم « وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ »

ولا نريد أن نطيل القول فى أوصاف الملوك ودرجاتهم عند الله والناس ، فإن ذلك كله مشهور وميسور لمن له أدنى إلمام بكتاب الله تعالى وســنة رسوله ﷺ ثم بكتب التراجم والتاريخ ، وحسبنا ما كتبه الحسن فى صفة الحاكم المثالى الذى يعز الله به الأمم ، ويظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظــله ، ويجلسه وإخوانه الملوك العادلين ، على منابر من نور مع النبيين والصديقين .

لما ولى الخلافةَ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى الحسن البصرى أن يصف له الإمام العادل ، فــكتب إليه قال :

---

(١) المراد بهم الحــكام الأعلون للأمم كما يفهم من سابق الــكلام ولاحقه ، ويلحق بهم الولاة والرؤساء وكل من ولاه الله أمراً من أمور العباد .

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصدَ كل جائر، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها ، يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباع ، ويُكنها من أذى البرد والحر . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى [1] على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلا تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطِمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح [2] تصلح بصلاحه وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم. وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرّد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك عنده أحباؤك ، يسلمونك

---

(١) من الحنو ، وفى رواية « الحان » من الحنان .

(٢) الأضلاع التى تحت الترائب وهى مما يلى الصدر كالضلوع مما يلى الظهر . الواحدة جانحة.

فى قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك « يوم يفرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبتِه و بنيه »

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور وحُصّل ما فى الصدور ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل . لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقُبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمةً ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك . ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، و يأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم .

إنى يا أمير المؤمنين و إن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى فلم آلُك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته .

* * *

هذا هو الحاكم المثالى الذى يعد قدوة الخلفاء ، وحامل لواء الملوك والأمراء . ولا ريب أن الفاروق الأول والثانى من حملة هذا اللواء ، وأن الحكام والملوك من بعدهم درجات تهبط إلى الأرض أو تعلو فى السماء .

* * *

درجات الناس عند الملوك[1]

تختلف درجات الناس عند الملوك والحكام باختلاف الرغبات والأهواء ؛ فأعظم الناس عندهم درجة أسرعهم إلى تحقيق رغباتهم وأشدهم ميلاً إلى هواهم ؛ وأقل الناس درجة عندهم ومنزلة أشجعهم على نصيحتهم وأخوفهم عليهم من بطش الله وعقابه .

من أجل ذلك تحامى الناس نصحهم حتى الدعاة إلى الله عز وجل وكانوا بين خائف منهم ويائس ! وبالغ كثير من الناس فى مدحهم والثناء عليهم ابتغاء المال والدنيا !

ولو أراد العلماء والولاة لأنفسهم وأممهم خيراً لقام الأولون بحق النصح والدعوة وهم يعلمون أن الدين النصيحة ، وأن أدنى ما يفيدون منها إبراءُ الذمة والخروج من التبعة ؛ ولفرح الآخِرون بها فرحهم بالحراس على المملكة والمحافظين عليها ، إذ كان الناصحون المخلصون هم دعائم الملك وعماد المملكة ، وأجدر بأن يكونوا عند الملوك أرفع الناس درجة وأعلاهم منزلة .

لكن علماء السلف قدروا النصيحة قدرها فقاموا بحقها لأئمة المسلمين وعامتهم لا يخافون فى الله لومة لائم . وكان الملوك يخشون بأسهم ويعلمون أنهم أولياء الله سبحانه ، والويل كل الويل لمن أراد وليه تعالى بسوء ! بل كان منهم من يدعو العلماء إلى موعظته ويتعظ بها .

***

---

(١) بهذا العنوان سمى الكتاب فى طبعته الأولى كما تسمى السورة باسم شىء بارز فيها . ثم شمل التعديل فى هذه الطبعة والتى قبلها الاسم والمسمى جميعاً .

من عظات العلماء للملوك

ولعل من الخير أن نسوق إليك دررا من هذه العظات ، تريك منزلة العلماء والناصحين فى السلف ؛ وتقفك بين يدى الله تعالى ضارعا إليه أن يشرح صدور علمائنا لنصح ملوكنا ، وأن يوفق ملوكنا للاستماع إلى علمائنا ، وأن يصلحنا بهم بمنه وكرمه ؛ فإنهما الصنفان اللذان إذا صلحوا صلح الناس ، و إذا فسدوا فسد الناس .

قال سفيان الثورى :

لما حج المهدى قال : لابد لى من سفيان ، فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذونى بالليل ، فلما مثَلت بين يديه أدنانى ثم قال : لأى شىء لا تأتينا فنستشيرك فى أمرنا ، فما أمرتنا من شىء صرنا إليه ، ومانهيتنا عن شىء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هذا ؟ قال : لا أدرى ، لى أمناء ووكلاء . قلت : فما عذرك غدا إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما حج قال لغلامه : كم أنفقت فى سفرنا هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمانيةَ عشرَ دينارا . قال : ويحك ! أجحفنا ببيت مال المسلمين !

ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد قال له : عظنى . قال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته فى عباده غيرك ، فلا ترض لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به ... يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك ، و إنك لا تُقْدم إلا على نادم مشغول ، ولا تخلف إلا مفتونا مغرورا ! وإنك و إيانا فى دار سفر وجيران ظعن .

ودخل عمرو بن عُبيد على المنصور فقرأ « والفجر وليالٍ عشر » حتى بلغ « إن ربك لبالمرصاد » ثم قال :

فاتق الله يا أمير المؤمنين ، فإن ببابك نيراناً تأجّج ، لا يُعمل فيها بكتاب الله ، ولا بسنة رسول الله ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك. أمَا والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده . فقال له سليمان بن مُجالد : اسكت فقد غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : ويلك يابن مجالد ! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه و بين من ينصحه ؟ اتق الله أميرَ المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سُلّماً إلى شهواتهم ، فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلُب ، وإن هؤلاء لن يغُنوا عنك من الله شيئا .

ولما بنى الحجاج دارا بواسط أحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : الحمد لله ، إن الملوك ليرَون لأنفسهم عزًّا ، و إنا لنرى فيهم كل يوم عبرا ؛ يعمِد أحدهم إلى قصر فيشيده ، و إلى فرش فينجده ، و إلى ملابس ومراكب فيحسنها ، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول : انظروا ماذا صنعت ؟ فقد رأينا أيها المغرور ! فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد لعنوك ! وأما أهل الأرض فقد مقتوك ! بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء ، وغررت فى دار الغرور لتذِلّ فى دار الحبور. ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننُّه للناس ولا يكتمونه .

* * *

وفق الله علماءنا للاقتداء بسلفهم ، والتعاون مع ملوكهم على البر والتقوى .

مؤلفات فى نصح الملوك

ولم يكتف علماء السلف بنصح الملوك شِفاهاً ، بل بينوا لهم ونصحوا فى مؤلفات ورسائل أهدَوها إليهم ، فخرجوا بذلك من عهدة الكتمان ، وسنوا سنة حسنة لهم أجرها وأجر من عمل بهـا بعدهم من غير أن ينقص من أجورهم شىء . ولئن جحد أكثر الملوك صنيعهم إن ملك الأملاك سيجزيهم عنه أحسن الجزاء ؛ وسيرون ذلك رأى العـين يوم يقوم الأشهاد « يومَ لا ينفعُ الظالمين معذِرتُهم ولهمُ اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ »

***

وإنا لنذكر بالغبطة والحمـد اتجاهاً حسناً فى هذا العهد ، لإحياء تلك المؤلفات ونشرها ؛ خدمةً للعلم والثقافة ، ونصحاً لأئمة المسلمين وعامتهم ، واتباعاً لسبيل المؤمنين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « ومن يتبعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نُولِّه ما تولَّى ونُصْلِهِ جهنمَ وساءت مصيراً »

وقد اطلعت فى هذه الأيام على بحثين ممتعـين فى مؤلفين من هذه المؤلفـات : سراج الملوك ، وسـلوك المالك ... نشر الأول بمجلة الثقافة [1] و بعث بالثـانى إلىّ الأستاذ الزميل أحمد الشرباصى ، لما يعلم من شدة حرصى على الإفادة من هذه الكتب وحبى لنشرها و إذاعتها وتقديمها لولاة الأمور فى أنحاء الدنيا ؛ فقد عَزَمَ الأمر وأحدق الخطر وأحاط البلاء من كل مكان ، و « لا عاصمَ اليومَ من أمرِ الله إلا من رَحِم »

واعترافاً بالفضل للباحثين رأيت أن أقبس للقراء من كل من هذين البحثين طَرَفا :

(١) للأستاذ على أدهم فى العدد ٥٨٤ فى ١٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٩

سراج الملوك

ألفه أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرطوشى المتوفَّى سنة عشرين وخمسمائة ، وأهداه إلى عبد الله المأمون بن البطائحى .

والطرطوشى نسبة إلى مدينة طرطوشة [بالضم وقد تفتح] إحدى مدن أسبانيا.

كان الطرشوشى إماما زاهداً ورعا ديِّناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير .

وقد جعله زهده قوالاً للحق كارهاً للباطل شديد التبرم بالظلم نزَّاعا إلى الإصلاح صريحاً فى مخاطبة الرؤساء والحكام . وكتابه جدير بأن يلتفت إليه لما حوى من أدب وحكمة ونقد وسياسة وتوجيه و إرشاد ، فى أسلوب رفيع وتنسيق بديع .

دخل على الوزير الأفضل بن أمير الجيوش وهو ملك مصر [1] فقال :

أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملّكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وأمر الله قد ألزم الورى طاعتك فلا يكن أحد أطوع لله منك ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان . واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يديك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ...

---

(١) قرب انطواء الدولة الفاطمية وأفول نجمها ، وكان للوزراء فى ذلك الوقت السلطة المطلقة ، ولم يكن للخليفة حينئذ من خلافته سوى الاسم .

سلوك المالك فى تدبير الممالك

ألفه شهاب الدين أحمد بن أبى الربيع ، للخليفة العباسى المعتصم بالله المتوفَّى سنة سبع أو تسع وعشرين ومائتين .

وقد جمع فيه شتات ما قرأ من كتب الأخلاق والسير ، مع اختصار وتركيز .

والنزعة الأصيلة فى الكتاب هى رغبة صاحبه فى أن يضع بين يدى المالكين معالم للتذكرة والتوجيه فى أمور الدين والدنيا ؛ ومعاملة الرعية على اختلاف درجاتها وطبقاتها ؛ ورعاية الحقوق وأداء الواجبات .

ومن كلامه فى ضروب السياسة التى يتبعها الملك مع جمهور الرعية :

وعليه أن يجتهد فى استمالة قلوبهم إليه ، وجعل طاعتهم رغبة لا رهبة ؛ وأن يبتدئ بالنفقة عليهم ثم بإطماعهم فى الرفعة لديه وقرب المنزلة ؛ وألاَّ يغفل عن البحث عنهم بلطيف الحيل حتى يقف على أسرارهم ؛ وأن يجعل محبتهم له اعتقاداً دينياً لا طمعاً فى أعراض الدنيا ؛ وأن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاًّ لما يصلح له من الولايات ؛ وأن يعرف أخبار مجاوريه من الملوك ؛ وأن يشحن ثغوره بالرجال ؛ وأن يتعهد جنده بجوائزهم ، ولا يحوجهم إلى رفع قضية أو شكوى ؛ وأن يسمع قول القائل والمقول فيه ثم يعاقب الباغى ؛ وأن يخلع على من أدخل عليه سروراً لينتشر الذكر الجميل ؛ وأن يتفقد عمارات بلاده وأسعار أهلها وأحوال أقواتهم . . . وأن يكون آثر الأشياء عنده بسط الخير للناس وتعميمهم بفضله ؛ وألا يجمع المحسن والمسيء فى منزلة واحدة لئلا يزهد أهل الإحسان فى إحسانهم . وليحسم أسباب التنازع ولا يسهل لهم التحرز لأنه يشتت الكلمة ...

ويقول فى واجبات السلطان المالك :

ويجب عليه ألاّ يغضب لأن القدرة من وراء حاجته ، ولايخاف لأنه لايقدر أحد على استكراهه ، ولايبخل لأنه لايخاف الفقر، ولايحقد لأن حضرته تجل عن المجازاة ، ولايلعب لأن اللعب من الفراغ ولافراغ له ، ولايخاف لأن الخوف من عمل الجهال ، ولا يحسد إلا على حسن التدبير ، ولا يثق بالدنيا فإنه لا عهد لها .

وفيه شؤون وفنون شتى من درر التوجيه وغرر التذكير ، مع لطف الأسلوب ودقة التعبير .

والحق أن عظاء الملوك لايعنيهم الثناء ، ولكن يعنيهم أن يكون حولهم أتباع مخلصون وسفراء خبراء ، يدرسون أحوال العامة ويتعرفون رغباتها ويلمسون مواطن دائها ، ثم يصدقون ملوكهم فى وصف العلاج والتحذير من المعاطب ؛ لأن السلطان وإن أوتيَ قوةً وجلداً لن يحيط بكل شيء علماً ؛ فلابد له من عيون بصيرة خبيرة أمينة فى الاستطلاع والإدراك والتصوير . وما أجل التبعة لدى الذين تضعهم الأقدار فى هذه المراتب ؛ إنهم لمسئولون عن أنفسهم أولا ، ثم عن سلاطينهم ثانياً ، ثم عن شعوبهم ثالثاً . ولو أن البشرية ضمنت خلال عصورها المتعاقبة الحاشية الأمينة الناصحة — لما تعثرت هذا التعثر ، ولعرفت طريقها السوى نحو السلام !

***

هذا عرض مجمل لكتابين قديمين (١) فى نصح الملوك وإرشادهم . وسيأتى تفصيله إن شاء الله فى هذا الكتاب .

---

(١) وقد أشار إليهما فى بضعة وعشرين كتاباً الأستاذ محمود فياض ، فى مقاله الحافل : « الفقه السياسى عند المسلمين » . انظر مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى ١٣٧٠ .

ورثة الأنبياء

هؤلاء العالِمون العاملون ، الناصحون المخلصون — الذين قدمنا لك — هم ورثة الأنبياء حقاً ، يهتدون بهديهم ، ويجددون للناس أمر دينهم ، ويستغنون بالغنى الحميد عما فى أيديهم . ولولا بقية منهم لهلك العالم أجمع !

هؤلاء هم مصابيح الظلام ، وهداة الأنام ؛ يبنون الأمم ، ويُحيون الهمم «يجاهدون فِي سبيلِ اللهِ ولا يخافون لومةَ لائم »

لاجرم أن حياة العالم بهؤلاء فوق حياته بالماء والشمس والهواء ؛ لأن حياته بتلك الثلاثة عاجلة فانية ، وحياته بالأنبياء والمجددين دائمة باقية. وشتان ما بين باقٍ وفان .

وحذارِ أن تعدَّ منهم أرباب المناصب والشهادات ، ما لم يكونوا أسبق الناس إلى الخيرات ، وإن أوتوا علم الأولين والآخِرين ؛ فإن إبليس منفرداً أعلم منهم أجمعين.

***

إن الذين يقولون ما لا يفعلون ليسوا من الأنبياء ولا ورثتهم فى شىء ، إن هم إلا فتنة الله فى الأرض يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء «وربُّك يخلق مايشاءُ ويختار»

ولا تسمِّ هؤلاء علماء الدنيا ، لأنهم لايعلمون ظاهراً منها — كما يعلم المخترعون والمستكشفون — ولكن سمِّهم عبادها ، لأنهم أحرص الناس عليها وأشدهم خشوعاً لها . وحسبهم من مقت الله لهم ، أن صرف القلوب عنهم ، لما انصرفت عن الله قلوبهم ! وهم يوم القيامة أشد مقتاً وخزيا ، يوم يدورون فى النار كما يدور الحمار فى الرحى ! [1] وإن شئت فسمِّهم كما يسميهم الناس قديماً وحديثاً :

---

(١) إشارة إلى حديث الصحيحين الآتى فى ص ٦٤ وألف الرحا دائرة بين أصليها الياء والواو

علماء السّوء :

لأنهم أساءوا إلى أممهم فغشوها ! وإلى أنفسهم فضيعوها ! وإلى دُستورهم الذى استُحفِظوه فلم يرعَوه حق رعايته .. حتى غزته فى أعقار الديار ووضَح النهار ؛ قوانينُ أرضية أتت عليه إلا بقيــة هزيلة نحيلة سمّوها « الأحوال الشخصية » وهى فى طريق اللَّحاق به ، بفضل الدعاة إلى توحيد القضاء ، فى أمم دينها الإسلام ! ونبيها رسول العدل والرحمة والسلام ! ودُستورها منهاج الحق والجمال والخير العام !

وإذا عذرنا بعض العذر من ينصر دستوره الذى نُشِّئ عليه وأُشربه وهو يجهل أن فيه شقاوته ، فــكيف نعذِر من يخذل دستوره الذى استودعه وهو يعــلم أن فيه مجده وسعادته ؟!

***

أما بعد ، فإن « علماء الـكلام »[١] ليعلِّمون ويقررون أن فاقد الشىء لا يعطيه ، وأن من دعا إلى خير وجب أن يكون مثالا فيه ، وإلا فهو سُخرة الساخرين وضحكة الهازئين ، وقلما يستجيب الناس لمن يسخرون منه ؛ ومن أجل ذلك ذم الله اليهود وأمثالهم ، لأنهــم يأمرون الناس بالبر وينسَون أنفسهم ، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، وإذا نهيتهم عما فعلوا تنصلوا وتأولوا « يشــترون الضلالةَ ويريدون أن تضِلوا السبيل »

ألا إن هذه موعظة من الله فى دينهم ، وإنها نعمة من الله سيقت إليهم فإن قبِلوها بشــكر وإلا كانت حجة من الله عليهم ؛ ليزدادوا بها إثمــاً ويزداد الله عليهم بهــا سخطا[٢] !!

---

(١) تسمية ثالثة لأشباه العلماء ، وهم حريون بها لـكثرة كلامهم وقلة عملهم !

(٢) اقتباس من حديث رواه ابن عساكر عن عطية بن قيس . وأوله : « أيمــا عبد جاءته موعظة من الله » الخ . قال شارح الجامع الصغير : وهو حديث حسن .

مقياس الدرجات

تقاس الدرجات عند الملوك والحكام بمقياس الأهواء والرغبات ، كما قلنا في ص ٤٦ وهذا من علامة الشقاء والخذلان والغفلة في شأن الدنيا والآخرة .

والسعيد من قاس الدرجات بمقياس النصح والإخلاص لله والملك والوطن ، وأخذ حذره من الغش والغاشين وإن زينوا له السوء فرآه حسنا.

وسيأتي عند ذكر الغش أن أكثر من ينخدع الناس بهم ويظنونهم عند الملوك أرباب الدرجات العلا — غاشون مخادعون « يخادعونَ اللهَ والذين آمنوا وما يَخدَعون إلا أنفسَهم وما يَشعُرون » ولا مناص — وإن طال المدى — أن ينكشف للملوك خداعهم ، فيسقطوهم من أعينهم كما سقطوا قبلاً من عين الله عز وجل ! ثم يهوُون إلى الدرْك الأسفل ، وإن تظاهر الناس بمدحهم رغبة أو رهبة.

وفي تنكيل المنصور بأبي مجرم [1] ثم في تنكيل الرشيد بالبرامكة — عبرة وعظة لمن أدبتهم الحكمة ، وأحكمتهم التجارب ، ولم تغررهم السلامة المنطوية على الهالكة !

وتقدير الدرجات عند الناس — سواءٌ الملك منهم والسوقة — إنما هو على حسب علمهم ، ومبلغ اجتهادهم ؛ فليس لهم من الأمر إلا ظاهره . وفِراسة كل منهم على قدر صدقه مع الله عز وجل . وكان للفاروق رضي الله عنه من صدق الفِراسة وصواب الاجتهاد أوفى نصيب .

---

(١) هذه كنية أبي مسلم الخراساني ذي البأس الشديد والدهاء العجيب ، قتل في تأييد عرش العباسيين ٦٠٠٫٠٠٠ فتك به أبو جعفر المنصور ثم أنشد وهو طريح بين يديه :

زعمت أن الدين لا يقتضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم

اشرب بكأس كنت تسقى بها ... أمر في الحلق من العلقم

قيل له : لم خرجت الدولة عن بني أمية ؟ قال : لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقة بهم ، وأدنوا أعداءهم تألفاً لهم ، فلم يصر العدو صديقاً بالدنو ، وصار الصديق عدواً بالابعاد .

كان لايأتي النساء إلا مرة في السنة ، ويقول : حسب الانسان أن يجن مرة واحدة في كل عام.

ومن أهمه أن يعرف درجة نفسه أو غيره من الملوك والسوقة ، فلينظر فى تاريخه وسجلاته ومقالات الناس فيه ، ولاسيما الأعداء ، فإنهم مولعون بذكر المساوى ؛ ثم ليزن ذلك كله بالقسطاس المستقيم .

وقد اصطلح علماء التربية على مقياس عددى لتقدير درجات العلوم ، ومنه الأرقام ٢٠ و ٤٠ و ١٠٠ ونختار هذا الأخير لأنه أيسر وأعدل ، فضلا عن أنه الوارد فى السنة المطهرة . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة »

وعلى هذا يكون أحق الناس « بالنهاية الكبرى » أعظمهم إخلاصاً لملكه ونصحاً له ، وأجلهم خدمة لوطنه وأمته ، من بعد طاعة الله عز وجل.

وإنما اشترطنا طاعة الله سبحانه ، لأن من عصى ملك الملوك حتى سقط من عينه ، كان للملوك أعصى ، وكان فى أعينهم أبعد سقوطا ، ولايرجى منه خير البتة ، وإن انحنى وركع وقبل القدم ، وزعم أنه مسلم ! وخير منه الذمىّ إن أخلص لدينه وملكه ووطنه .

وأبعد الناس عن طاعة الله والإخلاص للملك والوطن — أحطهم درجة ، وأقلهم منزلة ، فلايستحق إلا صفراً ، وربما استحق ما تحت الصفر إذا كان ضالا مضلا !

وأما الدرجات وما يتبعها من الجزاء عند الملك الأعلى ، فإنها تختلف باختلاف الناس فى العرفان والفضائل ، والجهل والرذائل ، وصدق العمل وكذبه ، وحسن الأدب وقبحه ، مع الله وعباده . لاجرم أنها تتفاوت على مراتب كثيرة يعلو بعضها بعضا.

وينتظم هذا التفاوت الذى لا يحيط به علماً ، ولا يحصيه عددا إلا الله عز وجل فى سلك هذه الآية الكريمة :

هُم دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعمَلُونْ

وسيزداد هذا التفاوت وضوحاً عند الكلام على «الدرجات فى القرآن الكريم»

* * *

و إذا بينا القول مجملا ومفصلا فى مقياس الدرجات عند ملوك الدنيا ، كان أحرى بنا أن نبينه كذلك عند ملك الدنيا والآخرة ، الذى لا ملِك — فى الحقيقة — غيره ، ولا خير إلا خيره ؛ ولا وزن لدرجة — و إن نافس فيها الملوك — ما لم يسبقها رضوانه ، و يمسكها شكره و إحسانه (١)

وأنت إذا نظرت بنور من ربك إلى أساس الدرجات عنده — وجدته راسخاً فى معنًى واحد ، يعبر عنه بلفظ واحد ، هو :

العبودية « لله الواحد القهار »

فعلى قدر عبوديتك لربك تكون درجتك عنده ؛ مقياس ثابت ، وميزان صادق ، أصدق وأدق من موازين الحرارة والبرودة والرطوبة وغيرها ، من موازين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . ثم تكون درجتك كذلك فى قلوب الناس و إن خالفتها ألسنتهم وظواهرهم لهوًى من أهوائهم التى قطّعتهم أحزاباً وشيعاً .

---

(١) في الفقرتين لمحات : إلى أن قيد النعم شكرها ، وأنها أثر من آثار رحمة الله وإحسانه . ولاريب أنه لا قيمة لنعمة البتة إلا إذا شكرها العبد ووجهها الى الخير ، وإلا فهى نقمة ، ولذا قال إمام الملوك كافة سليمان عليه السلام : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم »

وذكر الدرجات عقب رضوان الله وسخطه في قوله تعالى : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » دليل على إرادة التغليب كما يقول المفسرون ، فهى شاملة إذن للدركات التى يتدلى فيها المتدلون من أهل السخط والخذلان وإن كان أصلها للمعارج التى يعرج فيها المرتقون من أهل الشكر والاحسان . وبعد ، فمثل هذه اللمحات كثيرة فى هذا الكتاب .

ويثبت عندك هذا المعنى ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريلَ : إن الله تعالى يحب فلانا فأحبِبْه ، فيحبه جبريل ، فينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحِبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وأعظم مظهر لعبودية العبد ولايته لربه ، وإخلاصه له . وقد أجمل الله تعالى هذه الولاية فى قوله : « ألا إن أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنونَ . الذين آمنوا وكانوا يتقونَ » وفصلها بعض التفصيل فى حديثه القدسى الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىّ مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يُبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينَّه ولئن استعاذنى [1] لأعيذنَّه » .

ثم جاء تفصيل هذه العبودية بما لا مزيد عليه فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وحسبك دليلا على شرف العبودية ومكانها — أن الله تعالى جعل تضرعنا بها إليه فرضاً محتوماً فى أشرف المواقف ، ونحن ندعوه مخلصين له الدين : « إياكَ نعبُد وإياكَ نستعين »

* * *

ومن شَغَف الإسلام بأن تكون العبودية فى كل مظاهرها لله وحده —

---

(١) وروى بالباء . ومعنى آذنته بالحرب : أعلمته بها ، وصدق الله « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ومن ذا الذى يطيق دفاع الله وحربه ؟ ألا إن من تولى الله بعبادته واستعانته ، تولاه الله بحفظه ومعونته ، وأى حصن أو شرف بعد هذا ؟

نادى بالحرية ، ودعا إلى فك أغلال الاستعباد والاسترقاق ، ورغب فى ذلك بطرق شتى : من كفارات القتل والظهار واليمين والفطر فى رمضان وغيرها . وبلغ من ترغيبه فى العتق وفضله أن بشر المعتق بأن الله يُعتق بكل عضو من عتيقه عضواً منه .

والعجب من هؤلاء المستعمرين الماكرين الذين ينقمون من الإسلام إباحة استرقاق الأفراد ، ثم يستعبدون هم الأمم والشعوب ويسومونهم سوء العذاب ، ويكرهونهم على التدين بغير ما أنزل عليهم من ربهم ، من بعد أن يمنعوهم من دينهم ؛ ثم يزعمون بعد هذا وعشرة أمثاله معه أنهم حماة الإنسانية ورعاة الأمم ؛ وإنهم ـ والذى أضحك وأبكى ـ لأحط شأناً من رِعاء الإبل والغنم ! وإن كنت فى ريب من هذا فانظر مايعانيه الزنوج فى كل مكان على أيدى هؤلاء الكفرَة الفجَرة !

إنهم ليعلمون أن الإسلام لم ينشئ الرق إنشاء ، وإنما جاء وهو ذائع شائع فى الجاهلية الأولى ، بل فى المعمورة كلها — ولعل كثيراً من آبائهم الأولين ، كانوا عبداناً (١) مستذلين ، على أبشع صورة وأشنعها — فأخذ الإسلام يعمل على تخفيف الرق وتلطيفه ومحوه ، حتى سوّى بين الأحرار والعبيد والبيض والسود ، فى الأخوة والدرجة عند الله تعالى ، ونادى بهذا القانون السماوى العام « إن أكرَمكم عندَ الله أتقاكم » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ... ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه » إلى غير ذلك من شرعة الإسلام التى أنشأت من قرون الظلمات أمة يؤنب « فاروقها » أميره جهاراً : متى استعبدتم الناس ياعمرو وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

***

وقد تكلم فى هذه العبودية كلاماً حسناً عالمان جليلان من علماء الآخرة — وناهيك بهم — فأحببنا أن نزين كتابنا هذا بما قالا ، فلعل فيه عبرة لمن باعوا

---

(١) بضم العين كتمر وتمران ، وبكسرها كجحش وجحشان ، ولعل هذا أنسب بالمقام .

الدين بالدنيا فخسروهما معاً ؛ ثم عظة لجهلة النساك وأدعياء التصوف ، ممن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين !

قال صاحب اعلام الموقعين [1] رحمه الله فى أثناء شرحه لكتاب الفاروق إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما ، وهو أصل عظيم من أصول القضاء فى الإسلام ، لا يستغنى عنه بعد الكتاب والسنة أمة ولا إمام :

ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته سوى العبودية العامة التى سوى بين عباده فيها : فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذى بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ؛ وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه بأدائه والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتى ؛ وعلى الغنى من عبودية أداء الحقوق التى فى ماله ما ليس على الفقير ؛ وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما. وتكلم يحيى بن مُعاذ الرازى يوماً فى الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقالت له امرأة : هذا واجب قد وضع عنا ، فقال : هب [2] أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان فلم يوضع عنكن سلاح القلب ، فقالت : صدقت جزاك الله خيراً. وقد غرّ إبليس أكثر الخلق ، بأن حسن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد فى الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها . وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً ، فإن الدين هو القيام لله تعالى بما أمر به ، فتارك حقوق الله التى تجب عليه أسوأ حالا عند الله

(١) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية أو ابن القيم الجوزى المتوفى سنة ٧٥١ هـ

(٢) هكذا بصيغة الأمر للواحد والظاهر أن الياء سقطت عند الطبع . هذا وفى القاموس : وهبنى فعلت كذا أى احسبنى واعددنى ، كلمة للأمر فقط . اهـ

ورسوله من مرتكب المعاصى ... ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ و بما كان عليه هو وأصحابه — رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً والله المستعان ! وأى دين وأى خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها ، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ! وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين ؟!

وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع فى بعض ما فيه غضاضة عليه فى جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاث بحسب وسعه . وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون ، وهو موت القلوب ، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل . وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثراً : ان الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة : أنِ اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال : يارب كيف وفيهم فلان العابد ؟ فقال به فابدأ ، فإنه لم يتمعَّر وجهه فىّ يوماً قط . وذكر أبوعمر فى كتاب التمهيد أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى نبى من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلىّ فقد اكتسبت به العز ، ولكن ماذا عملت فيما لى عليك ، فقال : يارب وأى شىء لكَ علىّ ؟ قال : هل واليت فىّ ولياً أو عاديت فىّ عدواً ؟! اه

* * *

وقال صاحب مدارك التنزيل رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : « فكاتبوهم إن عَلِمتم فيهم خيراً » :

---

(١) أبوالبركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى المتوفى سنة ٧٠١ وقيل ٧١٠

واعلم أن العبيـــــــــد أربعة : قِنٌّ مقتنًى للخدمة ، ومأذون فى التجارة ، ومكاتَب ، وآبق .

فمثال الأول : ولىّ العزلة ، الذى حصّل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة .

والثانى : ولى العشيرة ، فهو نجىّ الحضرة ، يخالط الناس للخبرة ، وينظر إليهم بالعَبرة ، ويأمرهم بالعِبرة ؛ فهو خليفه رسـول الله ﷺ يحكم بحكم الله ، ويأخذ لله ، ويعطى فى الله ، ويفهـم عن الله ، ويتـكلم مع الله ؛ فالدنيـا سوق تجارته ، والعقل رأس بضاعته ، والعدل فى الغضب والرضا ميزانه ، والقصد فى الفقر والغنى عنوانه ؛ والعلم مفزعه ومنجاه ، والقرآن كتاب الإذن من مولاه . هو كائن فى الناس بظواهره بائن منهم بسرائره ، فقـد هجرهم فيما له عليهم فى الله باطناً ، ثم وصلهم فيما لهم عليـه لله ظاهراً :

وما هو منهمو بالعيش فيهـم ... ولـكن معدِن الذهب الرَّغام

يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، وما يدريهم أنه ضيف الله ، يرى السموات والأرض قائمات بأمره ، وكأنه قيل فيه :

فإن تفق الأنام وأنت منهـم ... فإن المسـك بعض دم الغزال

أما النبى ﷺ فهو كريم الطرفين ، ومعدن الشَّذْرين [1] ومجمع الحالين ، ومنبع الزُلالين ، فباطن أحواله مهتدَى ولى العزلة . وظاهر أعماله مقتدى ولى العشرة .

والثالث : المجاهد المحاسب ، العامل المطالب بالضرائب ، كنجوم المكاتَب ،

(١) الشذر : قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة ، أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار . الواحدة بهاء .

عليه فى اليوم والليلة خمس ، وفى المائتين درهما خمسة ، وفى السنة شهر ، وفى العمر زَورة ، فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة ، فيسعى فى فكاك رقبته خوفاً من البقاء فى رِبقة العبودية ، وطمعاً فى فتح باب الحرية ، ليسرح فى رياض الجنة فيتمتع بمُبيَّاه [١] ويفعل ما يشاؤه ويهواه .

والرابع : الأُبَّاق — وما أكثرهم — فمنهم القاضى الجائر ، والعالم غير العامل ، والعامل المرائى ، والواعظ الذى لا يفعل ما يقول ، ويكون أكثر أقواله الفضول ، وعلى كل ما لا ينفعه يصول [٢] فضلاً عن السارق والزانى والغاصب ؛ فعنهم أخبر النبى ﷺ « إن الله ينصر هذا الدين بقوم لا خَلاق لهم فى الآخرة » [٣]

* * *

(١) بياك الله : أضحكك أو قربك ، أو جاء بك أو بوأك .

(٢) روى الشيخان عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » . الأقتاب : الأمعاء ، واندلاقها : خروجها .

(٣) لفظه فى الجامع الصغير : « إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » وإسناده جيد . وفى حديث البخارى فى الرجل الذى قاتل حتى كان موضع إعجاب الصحابة وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار — وصدق الله رسوله فكثرت بالرجل الجراح فاستعجل الموت فانتحر — : « قم يابلال فأذن : لايدخل الجنة إلامؤمن ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »

الدّرجات في القرآن الكريم (1)

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٢٢٨)

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ ۞ (٢٥٣)

البقرة ، مدنية

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ (١٦٣) آل عمران ، مدنية

فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ (٩٥) دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ (٩٦)

النساء ، مكية

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ (٨٣) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ (١٣٢)

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۞ (١٦٥)

الأنعام ، مكية

---

(١) نقلت هذه الآيات الكريمات من مصحف الملك ، وقد كتب وضبط على ما يوافق الرسم العثماني .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ (٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ (٤) الأنفال، مدنية

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ (٢٠) التوبة، مدنية

كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ (١) ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۞ (٧٦) يوسف، مكية

ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۞ (٢١) الإسراء، مكية

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۞ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۞ (٧٥) طه، مكية

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ (٢) مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۞ (١٥) غافر، مكية

(١) مثل هذا الكيد - وهو الكيد الذى يخفى ظاهره على ناظريه والمتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه - كدنا ليوسف، أى ألهمناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله. المنار

(٢) القرآن، لأنه جار من القلوب مجرى الروح من الأجساد؛ أو جبريل، لأنه حياة القلوب باعتبار ما ينزل به من العلم. انظر روح المعانى.

نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ الزخرف، مكية

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ الأحقاف، مكية

لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ الحديد، مدنية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ (١) ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ (٢) فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ المجادلة، مدنية

---

(١) فى رحمته ، أو فى منازلكم فى الجنة ، أو فى قبوركم ، أو فى صدوركم أو فى رزقكم . أقوال.

(٢) انهضوا للتوسعة على المقبلين . روح المعانى .

لمحات

انظر إلى آيات الدرجات فى سورها من الـكتاب الحـكيم تجد :

١ — أنها ذكرت ثمانىَ عشرةَ مرة : أربعاً بصيغة الإفراد ، والباقى بصيغة الجمع .

٢ — أن سورها أربع عشرةَ : نصفها مكى ، ونصفها مدنى ، كعـدد السموات والأرضين .

٣ — أن الدرجات المـكية شطر منها دنيوى ، ليس مقصوداً لذاته ، وإنما هو ابتلاء وامتحان ، يظهر به التفاوت بين بنى الإنسان ، ويتخذه أولو النهى وسـيلة إلى درجات الآخرة ، ونعمت الدنيا الصالحة للرجل الصالح ، وشطر منها فى تفاوت الناس علماً وحجة ، وأعظمهم شأناً فى هذا البـاب أنبياء الله ورسله — ولاسيما خليـله — صلوات الله وسلامه عليهم .

٤ — أن جلَّ درجات السور المدنيـة فى الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وبعضها فِي شأن علماء الآخرة الذين قال الله فيهم « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » ودلت الآثار على أن منزلتهم فوق كثير من الشهداء . وليس علم هؤلاء بكثرة الرواية وإنمـا هو — كما قال إمام دار الهجرة رحمه الله — نور يقـذفه الله فى القلب . وعالم قليل الرواية عظيم النفع والخير والغيرة على الأمة وملـكها — أجدى عليهـا من عشرات الرواة والفقهاء الذين لا خير فيهم[1]

قيل للأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله : إن فلاناً يحفظ القاموس . قال : زادت فى البلد نسخة !

---

(١) راجع ما قدمناه لك فى ورثة الأنبياء ؛ وعلماء السوء فى ص ٥٣ و ٥٤

وقيل لطاوس رحمه الله : إن فلاناً يريد أن يأتيك . قال : لئن جاء لأقومن ، قيل : إنه فقيه . قال : إبليس أفقه منه « قال ربِّ بما أغويتنى لأزينَنَّ لهم فى الأرض ولأُغوينهم أجمعين . إلا عبادَك منهم المخلَصين »

٥ — أن ذكر الإيمان الحق قبل الدرجات دليل على أنه أساسها . والإيمان الحق هو ما وقر فى النفس وصدقه العمل . ومثل العمل والإيمان كمثل الأساس والبنيان ، لا قيمة لأحدهما ما لم يشد أزرَه صاحبه . ولا تنس إصلاح ذات البين وقد عرض فى سباق الدرجات مرتين (١) . وحسبك أنه وظيفة الأنبياء والمرسلين ، وملاك سعادة الدنيا والدين . وأما الإنفاق ، فعلى قدر الثقة بالواحد الخلاق « ولله خزائنُ السموات والأرض ولكنَّ المنافقين لا يفقهون »

٦ — أن من العلم النافع الذى يعلِّمه الله من اتقاه ، ويرفع به عبده درجات — حسنَ التلطف وكريم التوصل ، لما يريد من خير ونفع فى الدنيا والآخرة « إن ربى لطيفٌ لما يشاء » وهذا باب عظيم من أبواب الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء من عباده « ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أُوتىَ خيراً كثيرا وما يذَّكرُ إلا أولو الألباب » ويتصل بهذا ما نسميه بالسياسة الرشيدة (٢) وهى حسن التدبير فى تلافى المشكلات ، وتفريج الأزمات ، وتأليف القلوب . ولرسل الله أجمعين — ولاسيما خاتم النبيين — قدم صدق فى هذا الباب ، واقرأ غزواته وأسبابَ تعدد زوجاته ، تر العجب العُجاب .

---

(١) فى أول آيات الدرجات من سورة البقرة ، وفى أول آية من سورة الأنفال .

(٢) وأحياناً نسميه بالمكر الحسن، خلاف المكر السيئ « ولايحيق المكر السيئ إلا بأهله » ويا ليت الساسة والزعماء — وقد أنفقوا الأموال والأعمار فى مكرهم من غير طائل — يجربون هذه السياسة مرة واحدة ! إذاً لآتاهم الله رشدهم ، وتولى الله أمرهم « وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً »

٧ — أن تفضيل درجات الآخرة حافز لأولى الهمم على إيثارها و إيثار أهلها على أهل الدنيا و إن بلغوا فى السودد شأواً بعيدا .

روى أن قوماً من الأشراف فمن دونهم وقفوا بباب الفاروق رضى الله عنه ، فأذن لصهيب و بلال فى نفر من أهل بدر ، فشق ذلك على أبى سفيان وقال : يؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس ؟ ! فقال سُهيل — وكان أحكمهم — إنما أُتينا من قبل أنفسنا ، إنهم دُعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت فى الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لَمَا أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

* * *

هذا ، ولولا أن فى الإطالة ضرباً من الاستعباد ونحن نحب أن تكون حراً كريماً — لأريناك من أسرار القرآن عجبا ، فارجع النظر فى هذا الكتاب ، وقف بباب مولاك ، فعسى أن يفتح لك الباب .

من غشنا فليس منا (١)

لن يقدم الفرد ولا الأمة فى الدين والدنيا شىء مثل النصح ، ولن يؤخرهما ويذهب بهما شىء مثل الغش ؛ ولهذا كان « الدين النصيحة » وكان أخوف مايخاف الأنبياء على أممهم ، والملوك على رعاياهم ، والقادة على جنودهم — هو الغش !

ومن أجل ذلك لم يكتف سيد الناصحين ﷺ بالدعوة إلى النصح و بنيان الدين كله عليه ، حتى تبرأ من الغاشين المخادعين و بين أنهم ليسوا من دين الله فى شىء .

وعلى قدر فداحة الغش يكون جزاء الغاش وعقابه ، فالغش فى الدين ليس كالغش فى الدنيا(٢) وغش الملوك والأمم ليس كغش الآحاد من الناس . إن جزاء من يخدع ملكه أو يدلس على أمته أن ينكل به ، و يجعل عبرة لغيره !!

***

والغش ضروب شتى ؛ فمنه :

١ — النفاق ، وهو أشد أنواع الغش وأخبثه ؛ وحسب المنافقين أنهم فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . ولن يشفع للمنافقين تذللهم وخضوعهم ، وانحناؤهم وركوعهم ! ولو عقلوا لعلموا أن الصادق لا يُرى سيده قفاه ، و إنما يغض طرفه وصوته ، قابساً من نور محيّاه « إن الذين يغُضون أصواتَهم عند رسول اللهِ أولئك الذين امتحن الله قلوبَهم للتقوى لهم مغفرةٌ وأجر عظيم »

٢ — ومن هؤلاء من يتسمى بأسماء المسلمين و يتزيا بزى الصالحين ؛ ليقف على أسرار الممالك ، ويرميها بما أعدّ لها من المهالك !

---

(١) حديث رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) راجع ص ٤١

ومن أقبح العار ، وعوامل الفناء والدمار ، أن يسكن إلى أشـباه الأنعام ، من أنعم الله عليه بالإسلام ، أو يكون من المغفَّلين ، مغلَّبا للغافلين ، وهو من خير أمة أخرجت للناس « قد بيَّنَّا لـكُمُ الآياتِ إن كنتم تعقلونَ »[1]

٣ — ومنه اتخاذ العـلم والدين شـبا كا لاقتناص المـال والجاه فى صور كلها خزى ومعرة ! وقريب من هذا انتحال المؤلفات والمقالات ، والزيد فيها والنقص منها دون بيان أو استئذان !

ولهؤلاء الذين يختلون الدنيا بالدين ، ويلبَسون للناس جلود الضأن من اللين ؛ بألسنة أحلى من العسل ، وقلوب كقلوب الذئاب — يقول ملك الأملاك عز وجل : أَبِى تغترون ؟ أم علىَّ تجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثنَّ عليكم فتنة تدع الحليم منكم حيران!

وقد يكون الغش بإطالة السُّبح واللحى والعمائم ونحوها ؛ وذلك من طرائف الغش إن كان له طرائف . ولا ينخدع بهذا الضرب إلا الحمقى والمغفلون وأشباههم ، وما أكثرهم فى الأمم التى يضحك من جهلها من غفَّلهم !

قال صاحب الأمالى : وأنشدنى بعض أصحابنا ، وأحسبه قال لأبى العتاهية :

لا تفخرنَّ بلحيـــــــــة كثرت منابتهـــا طويله
تهوِى بهــــا هُوج الر ياح كأنهـــا ذَنَب الحسيله
قد يدرك الشرفَ الفـتى يوماً ولحيتــه قليـــــله

قال أبو على : الحسيلة : العجلة .

ونحن نربأ بكل مسلم أن ينتقص شيئاً من هدى النبوة ، و إنما :

« نعيــــذها نظراتٍ منه صادقةً أن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

---

(١) وإذا كان المغفل فريسة للغافل ، فهو أسوأ حالا منه ولاريب . ولذا جاء الاسلام بالـكيس ، وأكبر شأن العلم والعقل ، وأمرهما ألا يخضعا لأحد سوى العليم الحـكيم الذى أنعم بهما ، وحض على استعمالهما . وفي الذكر آيات وأمثال « وما يعقلها إلا العالمون » وبعد ، فأظنك قد فطنت إلى مايلمح إليه الـكتاب في هذه الفقرات ، فامتحن فطنتك ، وأخلص لله عبوديتك « وقل رب زدنى علما »

وللغش حجب :

تختلف كثافة وسخافة — ولانقول لطافة — كاختلاف قلوب الغاشين وما جعل الله عليها من أكنّة . ولايبصر ما وراء هذه الحجب إلا الكشافون من أولى الدرجات العلا . وإمامهم — حاشا النبيين — هو الفاروق رضى الله عنه. وحسبك أن أكبر غشاش فى الكون كان يخافه ويتحاماه ، فلايسلك فجاً إلاسلك الشيطان فجاً غيره بشهادة المعصوم ﷺ وكم خفقت دِرته رءوساً فى سبيل التبصير والتذكير ، والتحذير من الغش وأربابه .

ولم يبلغ درجةَ الفاروق فى الكشف إلا حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ وبلغ من كشفه أن الفاروق سأله : هل تعلم فىّ شيئاً من النفاق ؟ فقال : لا . وكان يتفقده فى جنائز المتهمين به ، فمن شهد جنازته منهم شهدها ، ومن لا فلا .

وسواء أكان الفاروق هو « الكشاف الأعظم » أم حذيفة رضوان الله عليهما . والمزية لا تقتضى الأفضلية .

وقد يعرف بعض الغاشين بعضاً كما يعرف أصحاب المهنة الواحدة أسرارها. وليس عجباً أن ينخدع بالغاشين العامةُ وأشباه الخاصة ، ولكن العجب أن ينخدع بهم ويسكن إليهم نفر ممن لا بأس بلبه وقد لدغوه مرة بعد أخرى ، و « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ولكن هو الضعف والعمى ! وحبك الشىءَ يُعمى ويُصمّ .

وبعد ، فقد كنا نود أن نقدم لك مخبـــاراً تتقى به الغش وأهله (١) ولكنا مضطرون إلى الإيجاز مخافة السآمة عليك .

وإذا كنت عبداً لله حقاً فسيكفيكهم الله كافة « أليس اللهُ بكافٍ عبدَه »

---

(١) قال ظريف من ظرفاء المغاربة : الصلاة عادة والصوم جلادة ، فامتحنوهم بالمقوش والمنفوش.

دركات الغش

النصح خير كله ، وهو درجات بعضها فوق بعض ، وأعلاه ما كان بين الراعى والرعية ؛ والغش شر كله ، وهو دركات بعضها تحت بعض ، وأسفله ما كان كذلك بين الراعى والرعية !

وإذا كان بعض الشر أهون من بعض فإن التقاطع بين الراعى والرعية أهون من التواصل على الغش والمداهنة والكذب والنفاق .

وإذا كان غش الراعى أكبر جرماً وأعظم إثماً فذلك لأنه أقدر الناس على النصح والصدق ، وأقوامهم على كلمة الحق [1] ومن هنا كان الملك الكذاب أحد ثلاثة [2] لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم .

وروى الشيخان عن معقِل بن يسار رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة »

وغش الرعية لراعيها بعض عقوبة الله له فى الدنيا ، جزاءً وِفاقا . غنم المسلمون فى فتح مدائن الفرس مغانم لا تقوّم ، ولما جيء بتاج كسرى وسِواريه إلى الفاروق رضى الله عنه جعل يقلبه بعود فى يده ويقول : والله إن الذى أدى هذا لأمين ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين أنت أمين الله ، يؤدون إليك ما أديت إلى الله ، فإن خنت خانوا .

---

(١) روى الامام أحمد فى مسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

(٢) كما فى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وبقية الثلاثة : شيخ زان وعائل مستكبر.

واطلع مرْوان بن الحكم مرة على ضَيعة له بالغُوطة فأنكر منها شيئاً ، فقال لوكيله : ويحك ! إنى لأظنك تخوننى . قال : أتظن ذلك ولاتستيقنه ؟ قال : وتفعل؟ قال : نعم ، والله إنى لأخونك ، وإنك لتخون الخليفة ، وإن الخليفة ليخون الله عز وجل ، فلعن الله شر الثلاثة .

ومن أخبث الغش :

وأضرّه غش المسئولين والمستشارين ، إذ كانوا قادة المملكة وعماد الملك ، ومن هنا كانت فضيحة الغاش الذى يلبَس لباس الناصحين أشد الفضائح ، وعقوبته أشد العقاب .

ويدخل فى هؤلاء الغاشون من أشباه العلماء والوعاظ والكتاب والصحفيين ورجال الجيش وكل من أسند إليه أمر من أمور الأمة فخانها فيه [1]

وإذا كانت سعادة الحاكم والمحكوم والراعى والرعية لن تقوم إلا على قاعدة التناصح التى بنينا عليها هذا الكتاب — فإن هذه القاعدة نفسها لن تستقر إلا على أساس نقى من الغش والدنس .

***

وبعد ، فنرى لزاماً علينا — وقد بلغنا الجهد فى التحذير من الغش وأهله — أن نبين حقوق كلٍّ من الأمة وإمامها ضارعين إلى الله تعالى أن يعيننا جميعاً على توفية هذه الحقوق نقية كاملة .

---

(١) إشارة إلى حديث البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله » وسد : أسند .

حقوق الامة

مرت بالأمم فى سائر أنحاء الدنيا عصور مظلمة ، تعاقب عليهم فيها من ظلم الرؤساء والأمراء والحكام والملوك ما لا يحيط به وصف .

ولبثت على ذلك دهوراً متطاولة ، لا تحركها أفاعيل الظلم والعسف ، ولا تهزها أعاصير الاضطهاد والاستعباد ؛ إلى أن دب فيها دبيب الحرية ، وسرى فيها الشعور بالجور ، فأخذت تعمل جاهدة على أن تعيش عيش الإنسان الكريم ، لا عيش الحيوان البهيم .

ولقد كان للأمم فى الدستور السماوى الذى شرع الله لعباده سعادتهم الدنيوية والأخروية ، لو أنهم أنصفوا أنفسهم ، واستعملوا عقولهم ، ولم يدنسوا فطرتهم التى فطر الله عباده عليها ! ولكنهم ركبوا رءوسهم واتبعوا أهواءهم وعمُوا أو تعامَوا عن هذا النور المبين والهدى الحكيم — فراحوا يطلبون حقوقهم فى دستور أرضى لا يغنى من الحق والسعادة شيئاً .

لمحة فى سبيل الحرية(١)

ناضلت الشعوب الغربية نضالا عنيفاً جرت فيه الدماء ، وأزهقت فيه الأرواح حتى نالت حقوقها المسلوبة وحريتها المغصوبة ، بعد ثورات عواصف حطم الشعب فيها معاقل الظلم .

وقد مهدت لهذه الثورات قديماً أثينا وإسبرطة وروما حتى استكملت حريتها

---

(١) استعنا فى هذه اللمحة ببحث تفضل به صديقنا الحقوقى الأستاذ مصطفى كمال وصفى المندوب بمجلس الدولة .

المنشودة . ثم كانت إنجلترا أسبق الدول الحديثة إلى تقييد سلطان الملوك ونشر لواء حقوق الأمة ؛ فثارت في وجه الملك جون الثانى وحصلت منه على العهد الأعظم الذى استتب به للأمة الإنجليزية أمر مراقبة الضرائب وكان عام ١٢١٥ م ؛ ثم ثارت على الملك شارل وأعدمته ، كما طردت الملك جيمس الثانى . وأقرت بثورتها عام ١٦٨٨ أهم مبادئ تقييد سلطان الحكومة .

وكذلك ثار الشعب الفرنسى عام ١٧٨٩ وأعدم الملك لويس السادس عشر ونفراً كبيراً من النبلاء ؛ ووضع أساس الحرية والإخاء والمساواة ، وأقر حقوق الإنسان ، ونظم رقابة الأمة على أعمال الحكومة وتسلطها عليها .

ثم ما لبثت نيران الثورة أن اندلعت فى شعوب أوربا وأمريكا فتعاقبت الثورات فى مختلف البلاد ، ودكت صروح الظلم والاستعباد ؛ حتى كانت الثورة الروسية الأخيرة التى قضت على الحكم القيصرى وحكّمت الشعب فى أمور نفسه .

وكان آخر مغنم لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعية التى اصطلحوا عليها ، والتى نصوا فيها على أنه لا يجوز بحال تعطيل حكم من أحكامها إلا أن يكون ذلك وقتياً : فى زمن الحرب أو أثناء قيام الأحكام العرفية .

ولو أنهم قدسوا الدستور السماوى بعض هذا التقديس لعاشوا فى رغد من العيش لن يظفروا به أبداً فى ظل هذه الدساتير .

هذه لمحة خاطفة من جهاد أمم الغرب وكفاحها فى نيل حقوقها الوضعية ، التى لا تعد شيئاً بجانب ما تكفلت به الشريعة السماوية من حقوق الأفراد والأمم ، وما ضمنته لمن وفى بها من سعادة العيش وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة .

***

وإذا كانت هذه الأمم الغربية الضالة المضلة قد ركبت رءوسها واتبعت أهواءها، وجحدت ما أنزل الله على رسله — فمابال الأمم الشرقية تخطب ودها وتسير فى ركابها وتقلدها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فى دستورها وقوانينها وعاداتها وأخلاقها ؟!

إن مثلنا فى تقليدنا للغربيين كمثل السفيه يورثه أبوه مورداً من الرزق يكفل له السعادة، ويبسط له العز والسيادة، فيأبى عليه سفهه إلا أن يبدد ثروته ويهدم بيده سعادته، ثم يعيش عبداً ذليلا يتكفف من كان بالأمس عبد أبيه.

ورِثنا المجـد عن آباء صدق ... أسـأنا فى جوارهم الصنيعا

إذا المجـد الرفيـع توارثته ... بنـاةُ السوء أوشك أن يضيعا

إنك لتعجب غاية العجب لهذا التقليـد الأعمى الذى جر علينا من البلاء والنكبات والاستعباد ما لا طاقة لنا به، ولكن يبطل عجبك إذا علمت أننا آكلناهم وشاربناهم وبعثنا بعوثنا إليهم من غير أن نزودهم بزاد من التقوى والخلق — لأن فاقد الشىء لا يعطيه — فجاءوا يسبحون بحمد الغربيين ويقدسون لهم ويتسابقون فى هذا التقليد والدعوة إليه على غير هدى ولا بصيرة!

هذا إلى أن مدارسنا ومعاهدنا على اختلاف طبقاتها لم تُشرب أبناءنا حب الدين ولم تنشئهم عليه!

إن مصابنا فى معاهدنا — وما أشده — أنها معامل لتخريج الموظفين والقضاة والرؤساء والحكام والوزراء، وكلهم يتولى شؤون الأمة وقيادتها؛ وكثير منهم — إن لم نقل أكثرهم — لا يعلم من أمر دينه شيئا. ومن هنا كان الضلال والعمى!

إن من الجرم الذى لا يغتفر، وإن من البـلاء الذى يحرم الصبر عليه، أن نخضع لهذه القوانين الأرضية، ونرضى بها بدلا من قانون الحكيم العليم، الذى خلق الموت والحياة ليبلونا أيّنا أحسن عملا؟

الدستور السماوى والدستور الوضعى

إن الدستور الوضعى — فى زعم واضعيه — هو مجموع القواعد والقوانين التى تبين سلطة الحاكم وحقوق المحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر وطرق توزيع السلطة واستعمالها . وكل هذا تكفل به الدستور السماوى و بينه أتم بيان وأحسنه ، وقام بتطبيقه المسلمون الأولون رعاةً ورعية على خير وجه وأكمله ، أيام كانوا ملوك الدنيا وسادة العالم ، وأيام كانت أوربا تخضع لملوكٍ وأمراءَ يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر ، اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، فعليهم للملوك السمع والطاعة وليس على الملوك لهم حق ولا واجب .

إن ذكر الدستور الوضعى بجانب الدستور الإلهى من باب اقتران الظلام بالنور والضلال بالهدى ، فانظروا ماذا تختارون لأنفسكم ؟ والله من ورائكم محيط « وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلَبٍ ينقلبون »

أيتها الامم

إن حقوقكم مكفولة مبسوطة ، وواضحة جلية ، فى هذا الدستور السماوى ؛ فجاهدوا فى سبيله كما كنتم تجاهدون فى سبيل الدستور الأرضى ، ثم انظروا أى الدستورين أهدى سبيلا ؟ « يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىءٍ فردوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخرِ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً »

وانظروا إلى أى حد بلغت عناية الدستور السماوى بتأدية الراعى حق رعيته

ورفقه بها ؟ مما يعييكم أن تجدوا بعضه فى دستور أرضى بالغاً ما بلغ من العظمة والرقى ! .

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا : « اللهم من ولِىَ من أمرِ أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقُق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفَق بهم فارفُق به » .

وروى أبوداود والترمذى عن أبى مريمَ الأزْدىّ رضى الله عنه أنه قال لمعاوية رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ولاّه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرهم — احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » .

وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « على المرء المسلم السمعُ والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ؛ فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »(1) .

وروى مسلم عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم(2) وشرار أئمتكم الذين تُبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . قال : قلنا يا رسول الله : أفلا ننابذهم ؟ قال لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة » .

* * *

هذا ، وكثير من حقوق الأمة مندمج فى حقوق الملك لما بينهما من قوة الصلة كما أسلفنا فى ﴿ صلاح الراعى والرعية ﴾ وإليكم ذلك مفصلا :

---

(1) وقع خطأ فى هامش ص ٢٥ وصوابه : روى الأول مسلم عن تميم الخ وروى الثانى البخارى عن أنس . وسبحان ربى « لا يضل ربي ولا ينسى » .

(2) تدعون لهم ويدعون لكم .

حقوق الملك (*)

حق على من قلدهم الله أزمة حكمه ، وملكهم أمور خلقه ، واختصهم بإحسانه ، ومكن لهم فى سلطانه — أن ينصحوا لأممهم ويكونوا أطوع لله منهم .

ومن كان كذلك فأول حق له على رعيته أن تخلص له وتطيعه فى كل ما أمر به ، فى المنشَط والمكرَه والعسر واليسر ، ما لم يأمر بمعصية ؛ فإن أمر بها فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

٢

ومن حقوق الملك أن تكتم أسراره عن الناس جميعاً حتى أقربهم إليه وأمسهم به ؛ فإن الملوك — وإن احتملوا كل عظيمة — لا يحتملون شيئاً من ثلاثة : الطعن فى ملكهم ، والبوح بأسرارهم ، والتعرض لحرمهم ؛ إذ كانت هذه الثلاثة أركان الملك ودعائم المملكة .

٣

ومن أعظم حقوق الملك على الخاصة من أهل العلم أن يبينوا له وينصحوا ، فالدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

بيد أن نصيحة الملوك لا تكون إلا بأسهل القول وألينه ، وأحسن الخطاب

(*) المراد بالملك الحاكم الأعلى للأمة ، كما قدمنا في هامش ص ٤٣ والمراد بحقوقه ما له وما عليه ، فيدخل فيها كثير من حقوق الأمة كما قلنا آنفاً .

وأجمله ؛ فقد أمر الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، وهو ممن ادَّعَوا الربوبية وجحدوا الآيات وعاندوا الرسل ، فماظنك بمن أطاع الله وحفظ شريعته وقُلِّدَ مقام أنبيائه وجعله الله الحجة بعد حجته ، وقرن طاعته بطاعته ، فقال عزَّ مِن قائل « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا أَطِيعُوا اللّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ »

وأكثر ما تؤثر الموعظة فى قلوب الملوك والأمراء إذا برزت فى صورة محببة من التلطف أو التعريض ، كما وقع لابن سيِّد الناس لما استدعاه المنتصر بالله ورغب إليه أن يقرأ بين يديه آية من القرآن ، فقرأ « فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفِرْ لهم وشاوِرْهم فى الأمر فإذا عزمتَ فتوكلْ على الله إن اللّهَ يحبُّ المتوكلين » فاستحسن المنتصر اختياره وكان سبباً فى حظوته ورفعة منزلته عنده .

على أنه لا ينبغى لداعٍ إلى الله أن يجاوز حد التلطف ، إلى ما يشبه التملق والتزلف ؛ فإن ذلك مظِنة الضعف والحاجة ، ولن تفلح دعوة ضعيف أو ذي حاجة أبدا .

***

وإنما يكون العالم رفيقاً في خطابه ، ليناً فى إرشاده ، ما لم يُرده ذو قوة على أن يقول ما ليس بحق ، أو يأتى ما ليس بمصلحة ، وإلا أخذ بالتى هى أرضى للخالق ولم يعبأ بالمخلوق شيئاً .

يُذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضى بكار بن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد ، فأبى ، فحبسه وكرر عليه القول فأصر على الإباءة ، وبقى فى السجن حتى ثقل ابن طولون فى مرض الوفاة ، فبعث إلى القاضى يقول له : أردك إلى منزلتك أوأحسن

منهـا ؟ فقال بكار للرسول : قل له شيخ فان والملتقى قريب والقاضى الله عز وجل !
فأبلغ الرسـول ابن طولون ذلك فأطرق ساعة ثم قال : شيخ فان والملتقى قريب
والقاضى الله عز وجل ! وأمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له .

ويناسب هذا ما قاله صاحب معيد النعم [1] ومبيد النقم :

ومما يتعين على القاضى تفهيم الملك الحكم الشرعى فيما يُنهى إليه من الوقائع
ومناضلته عنده عنها ، و إفهامه أن ذلك من الدين الذى إن حاد عنه هلك و إن
اعتمده نجا .

ومتى كان فى ولاة الأمور قسط من العدل ، وكان فى الداعى إلى الإصلاح حكمة
و إخلاص نجحت الدعوة فى سعيها و بلغت بتأييد الله مأربها .

* * *

وعلى ذكر العدل لا نرى حاجة إلى بيان فضله وجليل خطره بعد أن سمى الله
تعالى نفسه العدل ، وأقام السموات والأرض بالعدل ، وحكم بين عباده بالعدل ؛ مع
أنه يسألهم وهم لا يسألونه ، و يحاسبهم وهم لا يحاسبونه . ومهما يصف الواصفون فان
يبلغوا فى نعته مبلغ هذه الحكمة الخالدة : العدل أساس الملك . وكان الفاروق الأول
والثـانى — ولا يزالان — مضرب الأمثال فى العـدل والرحمة . والله يُعزّزها . . .
و يُعز الملوك والأمم بأحبهم إلى العدل وأقربهـم إليه ، وأسبقهم إلى إنقاذ أمته .

غير أن العدل لا يتم إلا بحكم الله عز وجل « وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً »

والإحسان أعظم من العـدل درجة و إن كان العـدل أساساً له ، ولذلك قُدِّم

(١) قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ والكتاب من مطبوعات جماعة الأزهر للنشر والتأليف.

عليه فى أجمع آية لمكارم الأخلاق « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ويدخل فيه العفو والبذل والحلم . وللملوك فيه آيات بينات .

ولما كان الإنسان أسير الإحسان كان التحلى به ألزم للملوك من سائر الصفات. ولقد أحسن أرسطو إذ كتب إلى الإسكندر يقول : املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك بإحسانك أدوم بقاء منه باعتسافك ؛ واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فاجمع لها القلوب بالمعروف ؛ واعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل .

٤

ومن حقوق الملك البحث عن أسرار خاصته وبطانته وإذكاء العيون عليهم خاصة وعلى الرعية عامة . قال صاحب التاج[١] : « ومتى غفل الملك عن فحص أسرار رعيته والبحث عن أخبارها ، فليس له من اسم الراعى إلا رسمه ، ومن الملك إلا ذكره » وقد كان الفاروق يعلم سيرة من نأى من عماله ورعيته علمه بمن بات معه فى مهاد واحد ، وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله ، حتى كان العامل منهم يتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به ، فساس الرعية سياسة الحزم والعدل . ولا يُعان على هذا إلا من كان إمام السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وسيأتى مزيد بيان لهذا عند الكلام على حق الملك فى امتحان رعيته .

٥

ومن حق الملك التأديب فى صور شتى ، ومنها الإعراض والغض . ولا يحسن

(١) أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥ هـ . وكتابه التاج أوفى ما رأيت فى أخلاق الملوك . وهو من أهم مراجعنا فى هذا الباب .

التأديب إلا إذا كان لله لا للهوى والغرض . وأحق النـــاس به خاصة الملك ، وبطانته وأهله ؛ لأنهم عيونه وعنوانه . وكان الفاروق رضى الله عنه أشد الناس على أهله و بنيه ، وكان يقول لهم : إن الناس ينظرون إليـكم نظر الطير إلى اللحم ، فوالله لا أرى على أحد منـكم شيئاً إلا ضاعفت عليه العقوبة !

ويروى أن النبى ﷺ طلق حفصة تطليقة ، ثم نزل عليـه الوحى بمراجعتهـا ، بأنها صوّامة قوّامة وأنها من أزواجه فى الجنة ؛ وقيل إنه همّ بطلاقها ولم يطلقها رحمة بها و بأبيها الذى حلف لو طلقت لايكلمها أبداً. وأما اعتزاله ﷺ نساءه شهراً تأديباً لهن ، فمما لا خلاف فيه .

٦

وللملوك مهابة وجلالة ، لـكنهم يتلطفون و يتواضعون حتى ليستمعون لإنسانٍ من عُرض الطريق ، وقد كسوه بالرفق واللطف طمأنينة وسكينة . أنصت ملك من ملوك العجم لرجل يقول له : أوصيك بأربع خلالٍ ترضى بهن ربك ، وتصلح بهن رعيتـــك :

لا يغرنَّكَ ارتقاء السهل إذا كان المنحدَر وعراً ، ولا تعدنَّ عدة ليس فى يدك وفاؤها ، واعلم أن لله بَغَتات ! فـكن منها على حذر ، واعلم أن للأعمـال جزاءً فاتق العواقب .

وخرج الفاروق رضى الله عنه ومعه المعلَّى بن الجارود ، فنادته امرأة من قريش فوقف لهـا ، فقالت له : يا عمر كنا نعرفك مدة عمـيراً ، ثم صرت بعد عمير عمر ، ثم صرت من بعد عمر أمير المؤمنين ، فاتق الله يابن الخطاب وانظر فى أمور الناس ؛ فانه من خاف الوعيـد قرب عليه البعيـد ، ومن خاف الموت خشى الفوت ، فقـال

المعلى : إيهاً يا أمَةَ الله ، فقد أبكيتِ أمير المؤمنين ! فقال له عمر : اسكت ! أتدرى من هذه ؟ هذه خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه ، فعمر أحرى أن يسمع قولهـا ويقتدى به . يشير رضى الله عنه إلى قوله تعالى : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إلى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » الآيات .

٧

ومن عادات الملك السعيد مجالسة الخاصة من أهل العلم والحكمة ومشاورتهم وإيناسهم والاستجابة لهم ، ليستنّ الناس بالملوك فى إجلال علمائهم واقتفاء آثارهم . والعلم — كما قال صاحب أدب الدنيا والدين[١] — عصمة الملوك ، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله ، وأما المال فظل زائل وعارية مسترجَعة ، ولو كان فى كثرته فضيلة لخصّ الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته .

وإذا كان هذا من شرف العلم وعزته ، فإن حقاً مفروضاً على العلماء — ولاسيما الكبراء منهم — أن يكونوا بالمنزلة التى أنزلهم الله إياها والمكانة التى شرفهم الله بها ، أئمة يهدون بأمره وقادة إلى الخير والرشاد بإذنه .

ومن تصفح التاريخ رأى أن استجابة الملوك للعلماء على قدر استجابة العلماء لربهم وخشيتهم له ، هذا عز الدين بن عبد السلام يطلع مرة إلى السلطان أيوب نجم الدين ويقول له : ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوِّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال : نعم الحانة الفلانية يباح فيها الخمور

(١) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ! فقال : أنا ما علمته ، ثم أمر السلطان بإبطال تلك الحانة .

٨

قال صاحب التاج : « ومن أخلاق الملوك اللهو » ثم ذكر أن أسعدهم من جعل للهوه وقتاً واحداً وأخذ نفسه بذلك ، فإن اعتدل واقتصد استطاب اللهو والهزل والمفاكهة ، و إذا أدمن وأسرف خرج به اللهو من بابه : فكان جداً لا هزل فيه ، وحقاً لا باطل معه ، وخلقاً لا يمكنه الانصراف عنه ، وليس هذا من صفة الملك السعيد . ومن أدمن شيئاً من ملاذ الدنيا لم يجد له من اللذة ما يجده القرِم النَّهِم المشتاق ، فان ألذ الطعام وأطيبه ما كان على جوع شديد ... وألذ النوم وأهنأه ما كان بعقِب السهر . وعلى هذا جميع ملاذ الدنيا .

والملك السعيد يقسم أيامه أقساماً :

فأوله لذكر الله تعالى وتعظيمه وتهليله ، وصدره لرعاياه و إصلاح أمرها ، ووسطه لأكله ومنامه وطَرَفه للهوه وشغله .

٩

ومن أخلاق الملك إذا دهمه أمر جلل — من ظهور عدو أو قتل قائد أو اضطراب نظام أو انحلال وئام أو قيام حرب — أن يترك ساعاتِ لهوه و ينفقها وسائرَ الساعات فى تدبير ملكه ومكايدة عدوه ، يرصد لذلك شغله وفكره وفراغه ، ولا يجعل للتسويف والتمنى وحسن الظن بالأيام نصيباً ، فإن هذا عجز من الملك ووهْن على المُلْك .

وكانت الخلفاء والأمراء إذا دهمهم أمر فزِعوا إلى المنابر وحرضوا الناس على الطاعة ولزوم الجماعة .

وفيما يذكر عن معاوية رضى الله عنه أنه قال : ما ذقت أيام صِفّين لحماً ولا شحماً ولا حلواً ولا حامضاً ، ما كان إلا الخبز والجبن وخشِن الملح ، إلى أن تمّ لى ما أردت .

ويحكى عن عبد الملك بن مرْوان أن صاحب إفريقيّة أهدى إليه جارية تامة المحاسن شهية المتأمَّل ، فلما أن دخلت عليه نظر إليها وفى يده قضيب خيزُران فصعّد ببصره إليها وصوّبه ثم رمى بالقضيب وقال : رديه علىّ ، فولت ، فنظر إليها مقبلة ومدبرة ، فقال : أنتِ واللهِ أمنية المتمنى . قالت : فما يمنعك يا أمير المؤمنين إذ كانت هذه صفتى عندك ؟ قال بيت قاله الأخطل :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

وكان هذا فى خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ثم أمر بها أن تصان وتخدم ، فلما فُتح عليه كانت أول جارية دعا بها .

* * *

وخير أنواع اللهو ما اتصل بالجهاد فى سبيل الله ، وأعان على حماية الأوطان والذود عنها : من السبق والرمى والصيد والعوم وما إليها . و إذا حسنت النية فى هذه الأنواع وجاءت على مقتضى الشرع — كانت من أعمال الآخرة التى ترفع الملك درجات ، وتوقظ فى رعيته حب الوطن والدفاع عنه .

وما قيمة قوم يرهب أكثر علمائهم قذّافة الصيد فارغة ، لبعدهم عن الجهاد والتفكير فيه وهم يتلون فى كتاب ربهم « وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » و يدرُسون

فى سنة نبيهم أن الجهاد ذروة الإسلام وسَنامه وأن القوة هى الرمى ؟ والرمىُ بمعناه الشامل هو عماد الحروب قديمها وحديثها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولئن كانت هذه الآية إحدى معجزات القرآن ، إن تفسير القوة بالرمى إحدى دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام .

ألم يأت علماءنا نبأ الذين من قبلهم ؟ كانوا يسددون الرمى ويقودون الجيوش ويدرسون فنون الحرب مع صنوف العلم جنباً إلى جنب : من أمثال محمد بن إدريس الشافعى مؤسس علم الأصول الذى أفنوا حياتهم فى دراسته ، وكان يصيب فى الرمى تسعة من عشرة ؛ وأسد بن الفُرات الذى سمت به همته فبعثته رحالةً من المغرب إلى المشرق ، يتلقى العلم عن عالم دار الهجرة وإمامها مالك بن أنس وكانت تضرب إليه أكباد الإبل وقتئذ . ثم يأخذ عن أصحاب أبى حنيفة بالعراق ، ولاسيما محمد بن الحسن الذى اختصه بمزيد من الحفاوة فى اللقاء . ثم يدخل إلى مصر فيفيد من أصحاب مالك وعلى رأسهم عبد الرحمن بنُ القاسم ، ويؤلف مدونته الأسدية . ثم يعود إلى وطنه بعد عشر سنين دأباً قضاها فى رحلته العلمية المباركة ؛ فيعرف علمه وعدله وشجاعته أميرُ القَيروان ، فيقلِّده ولاية القضاء ، ثم يوليه إمارة الجيش الذى حارب صِقليةَّ لما خرق صاحبها الهدنة ونقض عهداً بينه وبين المسلمين ؛ فيخوض مواقع القتال ، إلى أن يقضى نحبه بين السيوف والنبال ! وقد فتح الله على يديه أكثر البلاد . وأتم فتحها من بعده رجال يعزمون فيفعلون .

هذا بعض شأن أسد [1] وهو واحد من ورثة الأنبياء الذين حملت أيمانهم فى فى سبيل الله السيف والقلم ، وتخضبت بالمداد وبالدم ، فعاشوا علماءَ صالحين وماتوا

---

(١) اقرأ محاضرة فيه قيمة لأستاذنا الكبير السيد محمد الخضر حسين ، فى أول عدد من مجلة الهداية الاسلامية . وعليها اعتمدنا فى هذه الشذرة .

قواداً فاتحين ، وجاهدوا فيما بين ذلك لإعلاء كلمـــة الله ورفعة الأوطان والأمم ما استطاعوا إلى الجهاد سبيلا .

* * *

وأما نحن ... وما نحن ؟!

ياحسرةً علينا ! لقد نجح العدو إذ رمانا بالتعصب ونحن منه براء ، ليفسد أمرنا ويشتت شملنا ويفرق كلمتنا ! و بينا نحن ننسلخ من القوميـة والدين جملة ، مشايعة له ومجاملة ، قلب لنا ظهر المِجَنّ ، وأعدّ لنا دون ما كنا نستطيع من قوة ، ثم ضربنا ببعض ما أعدّ ، وهو متعصب تعصبنا الذى زعم أو أشدّ ، ضربةً لا قيامة بعدها ، إلا بنفحة ربانيـة وعزْمة ملـكية ، من بعد أن نغير ما بأنفسنا ونثوب إلى رشدنا ! « فادعوا اللهَ مُخلصينَ له الدينَ ولو كَرِه الـكافرونَ »

١٠

ومن أجـلّ صفات الملوك القوة بكل ما تحتمل من معنًى ؛ لتدخل فيهـا الشجاعة والروح المعنوية . والشجاعة ألزم للملوك من ظلالهم ، وهى عمـادهم مع العدل والحـكمة فى جلال الملك و بقاء المملـكة .

ذلك لأن الملك قدوة أمته و إمامها وقائدها وملاذها ، تستمد منه الحياة والجـد والعظمة والمجد ، والناس على دين ملوكهم . ولا حياة لأمة مهزولة الأجسام والأرواح مفلولة العزم والإرادة . وهل تدافع أمة عن كيانها أو تغير ما بأنفسها إلا بالقوة ؟ أو تؤدى الأمانة إلى أهلها أو تقوم بحق مالـكها أو مليـكها إلا بالقوة ؟ ومن ثمّ كان البقاء للأصلح ، وكانت الرخصة للضعفاء . ولله دِرّة الفـــاروق التى خرّجت أمة يصلحون لعمارة الأرض ، على حين تُباهى بهـم الملائـكة يوم العرض « يَوْمَ هُم

بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنهـمْ شَىءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

ولأن القوة مع الحكمة عماد كل سعادة ، ومِلاك كل رسالة ، وأساس كل نجاح فى الدين والدنيا — أنعم الله بها على رسله كافة ، وأمر الأمم وأنبياءهم أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة . وتفصيل ذلك يطول .

وإنما ابتلى الله أيوب عليه السلام بالمرض وفقد الولد حيناً من الدهر ، ثم آتاه أهله ومثلهم معهم — ليكون قدوة للصابرين ، وآية للشاكرين « وذكرى للعابدين » وأولئك ضروب من الرسالات العملية . على أن صبر أيوب صنف من القوة التى لا تؤتى إلا نبياً ، فنحسب أن ذلك إحدى معجزاته عليه السلام .

ومن خبث الأمم الغادرة الماكرة بالأمم الغافلة المستعمَرة ، أن تصرف قواها على اختلاف شُعبها ، إلى فنون من اللهو واللعب ، ورُكام من زخرف العلم وقشوره ، من كل ما يمتص الأموال والأعمار دون أن يغنى فتيلا . والعجب كل العجب أن تفتتن الأمم الضعيفة بهذا الحَشَف وتسعى له سعيها ، على حين أن الأمم التى غفّلتها تقصد فى لعبها ، وتوجه إلى البطولة والفتوة ؛ لتعدّ لهؤلاء المغفّلين ما استطاعت من قوة ! !

* * *

أما بعد ، فقد أخرجت للناس مدارس الدُّستور الإسلامى رجالا أقوياء أمناء « صدقوا ماعاهدوا الله عليه... » فملئوا الدنيا نوراً وهديً وقوة ومجداً ، ممن وصفت لكم كأنكم ترون بأعينكم . . .

فماذا أخرج للناس :

الازهر والجامعة [1] ؟ !

لقد أخرجا لهم أسودة [2] تحجب ضياء الشمس كثرةً وزحاما ... ولن أصف لكم .. فما راءٍ كمن سمعا . ولكنى أقول كما قال « القوى الأمين » عليه السلام إذ ناداه ربه : « أنِ ائتِ القومَ الظالمين . قومَ فرعونَ ألَاَ يتقونَ . قال ربِّ إنى أخاف أن يُكذِّبونِ . ويَضيقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى فأرسل إلى هرون »

***

هذا ، ومن ضروب القوة خَلة من أجل الخلال ، وهى خلة ضبط النفس وإخضاع هواها للعقل والحكمة ، وإن شئت فقل هى التوفيق بين العاطفة والعقل ، أو بين رغَبَات الروح وثَوَران الشهوة . وما أشد الصراع بينهما !

وأسعد الملوك من لاتأسره اللذائذ والمتع ، ولاتشغله الشهوات والهوى عن ملكه وحقوق ربه .

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عَرَض الدنيا عن الدين شاغله

وللأنبياء من هذه الفضيلة النصيب الأوفى . وناهيك بمن قام حتى تورمت

---

(١) أل فى الجامعة بمعنى كل ، مثلها فى قوله تعالى : « والعصر . إن الانسان لفى خسر » بدليل الاستثناء فى قوله سبحانه : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » والاستثناء من أدلة العموم . وإنما كان الأزهر وحده فى كفة وجامعات الدنيا كلها فى كفة ، لأنه شيخها والجدير بأن يكون قيما عليها ، وإن استضعفته وعقته لما قلدها واستعان بها . لاجرم أن مسئوليته عن ضعف الأمم أشد من مسئوليتها !

(٢) جمع سواد . ومن معانيه ـ كما فى المصباح والمختار ـ العدد الكثير ، والأكثر ، والشاة تمشى فى سواد وتأكل فى سواد وتنظر فى سواد ... والشخص ، وعوام الناس .

قدماه ! فقالت له الصديقة بنت الصديق يا رسول الله أتـكلّف هذا وقد غفر الله لك ما تقـدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : يا عائشة ، أفلا أكون عبـداً شكوراً ؟ و بما قال: « حُبِّبَ إلىّ من دنياكم النساء والطيب . وجعلت قرة عيني فى الصلاة »[1]

هذا إلى ما جبلوا عليه من قلة الطعام والشراب وما أوتيَه كل منهم من القدرة على ترك النساء متى شاء . وكان يحيي عليه السـلام حصوراً لا يقربهن مع قدرته البالغة ، وكانت الرهبانية ضرباً من العبادة فى زمنه . ولا رهبانية فى الإسلام .

وتقدم أن خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام أدب نساءه فاعتزلهن شهراً كاملا. وكذلك بلّغ الله أنبياءه ذروة الجلال والجمال ، فى سائر الأحوال .

* * *

وقد عمى أو تعامى عن هذه الحـكم وأمثالهـا شرذمة من خفافيش الناس فقالوا على أنبياء الله ورسله — حسداً و بغياً — إفـكا وزوراً !! ألا و يل للخفاش الحقير ، مما يقترب من السراج المنير؛ إنه لابد أن يسقط أو يحترق !

(١) رواه أحمد والنسائى عن أنس ، وإسناده جيد . وزيادة ثلاث قبل « النساء والطيب » غلط فاحش ؛ لأن الصلاة ليست من الدنيا . ولاتغفل عما فى الحديث من إشارات عالية : كالترغيب في الزواج ، والعطف على شريكة الحياة ، وتحريك الهمم إلى معالى الدرجات الروحية والنفسية .

امتحان الملك [1]

ومن أجلّ حقوق الملك على رعيته أن يعرف درجة من شاء منهم فى إخلاصه وطاعته ، وقوته وأمانته ، وعمله وكفايته ، فى دينه ودنياه ؛ وذلك ليختار بطانته من أولى العلم والتقى والبصر بالعواقب والغَيرة على الراعى والرعية . ولا ريب أن البطانة النقية الزكية هى رداء الملوك وعدتهم فى الشدائد والأزمات !

وقد روى البخارى عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه و بطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله » .

وللفاروق قدم السبق فى امتحان خير أمة أخرجت للناس ، فقد بلغ من امتحانه للرعية أن يخرج فيهم متنكراً يسأل بعضهم عن بعض ، حتى ليسألهم عن أميرالمؤمنين وما يقول الناس فيه ! ثم يزن أقوالهم كما يزن أعمالهم بالقسطاس المستقيم .

ومنذ أن كسر الباب [2] وتسامح الملوك والأمراء فى امتحان رعاياهم ومكافأة المحسن منهم والمسىء ، وأسندوا أمرهم إلى من لا ينصح لهم ولا يغار على ملكهم —

(١) أفردنا له مبحثاً خاصاً وإن كان تابعاً لما قبله ، لأن امتحان الملك لبطانته وحسن اختياره لها دليل على سعادته وسعادة أمته به ، ولن تتم هذه السعادة إلا إذا نهج منهج الفاروق فعرف بصدق وحق ما يقول الناس فيه . والبطانة الصادقة المخلصة أكبر عون له على ذلك . وانظر ص ٤٣ و ص ٤٦

(٢) الباب هو عمر رضى الله عنه وكان سداً منيعاً دون الفتن التى تموج كموج البحر ، كما فى حديث الشيخين عن حذيفة .

دب الضعف إلى الرعايا وسرى فيهم سريان النار فى الهشيم ، حتى طَفَوا كغثاء السيل، أو هبطوا إلى الدرك الأسفل ، لا دنيا ولا دين ! ولئن لم يتعاون الملوك والعلماء على إنقاذهم ليصبحُنّ جميعاً من الهالكين !

***

وإذا كان من حق الملك أن يعاقب المسيء وأن يمتحن من شاء من الرعية ، فإن المأمول فى رفقه وحدَبه على أمته وتخلقه بأخلاق الله عز وجل ، ألا يأخذ أحداً على غرة ، بل يمهله أمداً يتأهب فيه ويعتبر أو يذّكر ويزدجر ، فقد أمهل الله المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض مرتادين لأنفسهم ناظرين فى أمرهم ، مع أنهم نقضوا عهوداً بينهم وبين المسلمين ، وخانوا الله ورسوله ولم يرقبوا فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة « فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرُم فاقتلوا المشرِكين حيث وجَدتموهم وخذوهم واحصُروهم واقعدوا لهم كلّ مَرصَد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ فخلُّوا سبيلهم إنَّ الله غفورٌ رحيم »

هذا ، والملك الصالح من يتذكر موقفه فى امتحان ملك الملوك سبحانه « يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلمون إلا من أذِنَ له الرحمن وقال صوابا »

***

ومن حق الملك تقدير الدرجات فى هذا الامتحان وتحديد نسبتها فى النجاح والفوق . ويجب أن يكون أرفع الناس عند الملوك درجة أسبقهم إلى طاعة الله عز وجل ثم إلى نصح مليكه ، وخدمة وطنه وأمته ، ولا شأن للدنيا والوظائف هنا كما أشرنا إلى ذلك فى ص ٥٦ فرب عامل فقير يأكل من كسب يده أقرب إلى الله تعالى وأنفع للملك وأجدى على الأمة والوطن من وزير كبير هو كَلٌّ على الدولة وعبء عليها ؛ وكان خليفة الله داود عليه السلام « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » يأكل من عمل يده .

وكان الصديق تاجراً قبل أن يلى الخلافة ، فلما وليها مكث بضعة أشهر يرتزق مما يُغل ماله ، ولا ينفق من مال المسلمين شيئاً ، فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد يمشى بها فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال : انطلق يفرض لك أبوعبيدة أمين هذه الأمة . ففرض له أبوعبيدة ما يصلحه وعياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر . ومقدار ذلك فى السنة ستة آلاف درهم (١)

ولما حضرته الوفاة أمر برد ما عنده إلى بيت مال المسلمين . ثم استن بسنته الفاروق رضى الله عنهما .

ولا يعنينا بسط البيان فى موضوع الامتحان ، وإنما يعنينا أن نذكر قضية مع الأسى والأسف لا نعلم فيها مخالفاً ! تلك أن الأمم لو فوجئت بامتحان الملوك كانت النتيجة بلاريب مخزية مؤلمة وكانت الوجوه سوداء مظلمة ! لا جرم أنها فى امتحان الملك الأعلى يومَ تبيض وجوه وتسود وجوه — أشدُّ حلكة وظلاماً !

نعم قد يحصل واحد فى كل مائة على درجة مقاربة ، وواحد فى كل ألف على درجة متوسطة ، وواحد فى كل مائة ألف على درجة عالية ، وواحد فى كل ألف ألف على درجة ممتازة . وربما كان فى الأمة كلها واحد أو اثنان أوثلاثة من العباقرة الذين ادخرهم الله للملوك ردءاً وعوناً ، يبعث بهم على أيدى الملوك الأمم ، ويحيى بهم الهمم ، من الألى يَهبون الدنيا على خَصاصة وخبرة ، ويرجون الآخرة على بينة وعبرة ، ويدعون إلى الله على هدًى و بصيرة . فإذا ظفر الملك بواحد من هؤلاء فما أسعد مملكته وما أفضل درجتها فى الدنيا « وَللآخرةُ أكبرُ درَجات وأكبر تفضيلاً » .

وحق على الذين اصطنعهم الملك لنفسه وقربهم إليه ، ألاّ يُخفوا عليه من

(١) قيمة الدرهم الآن خمسة وعشرون مليما تقريباً .

أمر مملكته شيئاً ، فقد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر ، ورأينا الصحة تؤتى من الداء اليسير ، ورأينا الأنهار تتفجر من الجداول الصغار ، فإن غفلوا أو تأولوا فحق على أولى الغيرة من المملكة ألا يكتموا الشهادة « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

ولما كان ذلك لزاماً على أولى الغيرة من الرعية ، رفع إلى ملكه مؤلف هذا الكتاب فى الطبعة الأولى[1] مائة شهادة أو تزيد ، وفيها صورة مصغرة للرعية بما وصفوا به أحوالهم « وشهدوا على أنفسهم » استنسخها من الصحف ، قبل أن تنشر الصحف وتلزم الأعناق فى يوم التلاق ، ويقال لكل إنسان كائناً من كان « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

رفعها من طريق أمنائه وعلمائه ووزرائه ، وإذا لم يسألوا عنها فى الدنيا فإنهم مسئولون عنها وعن غيرها بين يدى أحكم الحاكمين فى العقبى « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً »

أربع شهادات

وأما فى هذه الطبعة والتى قبلها فقد اكتفى بأربع شهادات مسجلة :

سجلها أمير عظيم نائب عن ملك عظيم .

وزعيم مسئول يرأس وزراء دولته .

وصحفى أجنبى معروف أمضى أسبوعين فى قطر زعيم ثم كتب تقريراً عما شاهده .

وصحفى وطنى غيور قضى حياته فى خدمة الجامعة الإسلامية والنهوض بها :

---

(١) صدرت فى يوم عاشوراء عام ١٣٧٠ ، وصدرت الطبعة الثانية فى غرة رجب من هذا العام نفسه ، وتصدر هذه فى غرة رمضان بمشيئة الله وتوفيقه .

١ — شهد الأمير فيصل آل سعود فى مؤتمر صحفى جامع بأن العدو قد نجح فى التفرقة بيننا ! فتفرقت كلمتنا وشغلنا عن قضايانا العامة !

(المصرى فى ٣ من جمادى الأولى)

٢ — شهد دولة الرئيس ناظم القدسى بك على الجامعة العربية بأنها إسراف فى المظاهر وخيبة فى الآمال ! (الأهرام فى ١٨ من ربيعٍ الآخِر)

ومن هذه الخيبة أننا أعددنا ٠٠٠ر٥٣٥ر١ من الجنيهات لتنسيق حدائق ، وتعديل أسوار ، وإقامة تماثيل ؛ ونحن فى أشد الحاجة إلى ما يرد عنا عادية اليهود وأنصارهم ، وعادية الفقر والجهل والمرض ، وعادية الشيوعية وسخط الجماهير !

ومن هذه الخيبة أننا اعتمدنا ١٦٠٠٠ جنيه لتيسير مكافحة الغلاء ثم اشترينا بها سيارات فاخرة ! وأنفقنا فى حفلة واحدة من هذه الحفلات التى لا حصر لها ١١٥٠ جنيها ثمن خمر ... ورقص ... ولا نزال نزعم مع ذلك الرجس أننا ندين بالإسلام !

ألا إن هذا الخسران المبين عشراتُ عشراتِ أمثال ما أكلنا من حقوق الفقراء والمساكين ! إلى جانب ما هو أدهى وأمرّ : من عدوان اليهود وغدرهم ، وسلطان المستعمرين وجشعهم ، واضطراب حبل العرب واختلافهم ، وامتصاص ضروب الشركات لدمائهم من بعد أموالهم ، مما لا يرضى ببعضه العبدانُ [(١)] ولا يقيم عليه إلا الأذلّان : عَير الحيِّ والوتدُ !

٣ — ومن تقرير الصحفى الأجنبى [(٢)] :

عندما تسأل زعيما أو وزيراً حالياً أو سابقاً : ما هو بَرنامَجك ؟ تسمع كلمات

---

(١) راجع هامش ص ٦٠

(٢) تقبل شهادة العدو إذا أيدها الواقع ، وكفى به شاهداً .

ضخمة مثل : محاربة الرشوة والطغيان والدستور والوطنية والعدل والقضاء على الظلم ؛ ولكن لا يوجد شخص واحد عرف كيف يحارب الفساد و يحقق الإصلاح ؟!

كل شيء في بلادكم مقدس : حقوق الزعيم مقدسة وحقوق الحكام مقدسة والتقاليد مقدسة والمطالب مقدسة ؛ والشيء الوحيد الذي ليست له قداسة هو الشعب!

(أخبار اليوم في ١٢ من ربيع الآخر)

٤ — ومن مقال الأستاذ الغاياتي بعنوان ٤٠٠ مليون خروف :

إن المرء ليدهش كلما رأى هذا العدد الهائل يسام الخسف بأنواع مختلفة في كل بقعة من يقاع الأرض ! إنهم أشبه شيء بالخراف أو النعاج تجز أصوافها وتؤكل لحومها ولا تبدي حراكا أمام المقص أو السكين ، بل تستسلم استسلاماً يقضي عليها بالفناء ... فنحن إذن معاشر المسلمين أربعمائة مليون خروف ، لا أربعمائة مليون رجل وامرأة يؤمنون بالله ويريدون الحياة ...

ومحال أن نتحول إلى ما نرجوه من عزة وكرامة ما بقينا كالخراف وادعين مستسلمين . أما إذا غيرنا ما بأنفسنا ، وأبينا أن نقيم على الضيم أكثر مما أقمنا ، فإننا لا نلبث أن نتحرك وننهض ، ونتحرر ونسود . وعند ذلك نكون حقيقة أربعمائة مليون إنسان ، لا أربعمائة مليون خروف ... فهل نريد ؟ وهل نعمل ؟ وهل نرجع إلى الله لنحقق الأمل المنشود ، ونجدد العهد المفقود ؟

(منبر الشرق في ١٥ من جمادى الأولى)

وعلق « مسلم » في ٢٢ منه على هذا المقال تعليقاً روى فيه عن وزير خارجية فرنسا إبان الحرب البلقانية قال :

إن المسلمين لو كانوا ٤٠٠ مليون كلب [1] لحسبنا حسابهم !

---

(١) يؤلمنا أن نذكر هذه الحقيقة المرة ! ولكنها الشهادة لا مناص من أن نؤديها على وجهها.

وها هى ذى الدولة الفاجرة تصدقه بما فعلت فى سورية ولُبنان ، وبما تفعل فى مَرَّاكُش الآن ! ولعله قد آن الأوان لأن نتطهر من هذا العار ، بالدم والنار !

***

هذه شهادات أربع من بين آلاف الشهادات يرفعها المؤلف إلى ملوك الإسلام ورؤساء الدول كافة ، ثم إلى المسئولين والمستشارين وفى مقدمتهم علماء الأزهر ، ثم إلى كل من تعنيه سعادته وسعادة أمته ، ومن لا يقيم على ضيم يراد به !

ذلك بأنه من أهم مقاصد هذا الكتاب :

مصارحة الملوك والرؤساء :

باتجاه الشعوب وأحوال الأمم ، إذ كانت تهمهم كما تهم الرعايا أو أشد ؛ لأن مجد الملك من مجد شعبه كما أن مجد الشعب من مجد ملكه .

وتقضى غَيرة الملك وحرمته ألاّ يسند النظر فى هذه العظائم إلى غير الصفوة المنتخبة من أولى العلم والتقى والبصر بالعواقب والغَيرة على الراعى والرعية ، ممن أشرنا إليهم فى الصفحات ٤٦ و٥٣ و ٩٤ و ٩٦ فإن إسناد الأمر إلى غير الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لن يثمر إلا خطباً تخطب وكلمات تلقى مما ملّه الناس وسئموا !

ومهما يكن من أمر فقد حمّلنا الأمانة أربابها ونحن نكرر الرجاء أن يستجيبوا لقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »

فإذا حيل بين الملوك و بين الاطلاع على أحوال أممهم لحق على أولى الغَيرة أن ينفِروا لإنقاذ السفينة من الغرق وهى مشحونة بهم و بالملوك والأمم جميعاً .

اللهم إن النذير العُريان لا يملك إلا البلاغ وقد بلغ وحذر وأنذر اللهم فاشهد .

« فبذلك فليفرحوا »

كثرت الهموم والأحزان والشكاوى من أحوال الأمم الإسلامية فى هذه الأيام كثرةً لم يعرفها تاريخهم من قبل . ولو أن هذه الشكاوى اقتصرت على العامة والعاجزين لهان الخطب ، ولكنها تعدتهم إلى الخاصة والقادرين ومن بيدهم الحل والعقد !

فهل هم عاجزون حقاً — كالضعفاء والعامة — عن إزالة هذه الشكاوى ؟ أو هم قادرون على إزالتها أو تخفيفها إلى الحد الأدنى ، ولكنهم « يخادعون الله والذين آمنوا » فيتظاهرون بالعجز ليدركوا مآربهم من الشهوات والهوى !

أما الفرض الأول فهو نفاق لا نرضاه لهم ولو رضوه لأنفسهم ؛ لأنهم منا ونحن منهم . والفتنة إذا وقعت لا تصيبن الذين ظلموا منا خاصة ! وأما الفرض الثانى فما نظنهم يرضونه لأنفسهم إلا أن يرضَوا بالنقص مع القدرة ! والعيب مع المعرة !

إن العلاج الوحيد الذى ينقذكم جميعاً من البلاء والشكوى والذى يُفرحكم ويذهب عنكم الهم والحزن هو التمسك بالدُّستور السماوى والدعوة إليه والحرص على جميع أحكامه ، وأما هجره أو هجر بعضه إلى قانون أرضى تسمونه دُستوراً فذلك هو سبيل الهم والغم والحزن الذى يدوم أبدا . وقد جربتم الدساتير الأرضية دهوراً مضت فجربوا دُستوركم السماوى الإسلامى الحق مرة فى العمر إن كنتم مسلمين !

وها هو ذا رجل معمَّر محنك من زعماء إيران يقول :

لا تقوم للدول الإسلامية قائمة إلا إذا بنت كل منها حياتها على أساس القرآن .

إن الإنجليز الكلاب سرقوا منا القرآن ، وكان جلادستون الكلب رئيس وزراء الإنجليز فيما مضى يقول : إنه لا طريق لنا بين الأمم الإسلامية ما دام فيها القرآن ، ومن ذلك الوقت سعى الكلب وسعى بنوقومه الكلاب حتى أضاعوا من بيننا القرآن !

ورفع « آيةُ الله » يديه معاً إلى السماء ، وارتفع صوته ، وارتفعت الحرارة فى ألفاظه إلى درجة الغليان : أين الحكومة الإسلامية ؟ أين الحكومة الإسلامية ؟ !

(أخبار اليوم ، ومنبر الشرق فى ٩ و ١٥ من جمادى الآخرة)

وقبل التعليق على هذا الكلام الذى يعمل في ذوى الغَيرة عمل السهام ، أصارحكم بأنى كتبته وأنا متحرج من وصف الإنجليز فيه بأنهم كلاب ، لا لأنهم غير جدراء بهذا الوصف وأفظع منه ، بل لأنى ومن تحرج معي نحب أن يتنزه كتاب الدرجات عن هذه الهَنات ؛ ولكن يأبى الله إلا أن يرفع عنا الحرج بشهادتهم على أنفسهم فى هذا الحديث الذى نشرته أخبار اليوم (١) :

قال إنجليزى كبير لمصرى كبير : إن موقف جيش الاحتلال فى منطقة قنال السويس هوعبارة عن كلب يحرس مصر ! ولست أعرف كيف تضيقون بهذا الكلب الذى يحرسكم ؟!

وضحك المصرى الكبير وقال : ولكن هذا الكلب يعَضنا فى بعض الأحيان !

فقال الإنجليزى : هذه مسألة بسيطة ... هذا ثمن بسيط للحراسة الضرورية !

ومالنا نتحرج وقد جاء فى التنزيل ضرب المثل بالكلب ، للذى انسلخ من آيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه . . كما جاء فيه ضرب الحمار مثلا للذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ... ومن هؤلاء علماء السوء الذين أشير إليهم فى ذيل الصفحات ٥٣ و ٥٤ و ٦٤

* * *

(١) فى غرة رجب ١٣٧٠ بعنوان « انجلترا كلب يحرس مصر ! »

[إن هذا الكلام القوى الشديد الذى يتكلم به « آيةُ الله » هو مايشعر به فى أعماق نفسه كل مسلم ... ولكن من منا يجهر به ، و يعمل بمقتضاه ؟ لقد ألهتنا المطامع ، وفتت فى عضدنا الأهواء والدسائس ، فرضينا بالذل وتناسينا أننا أذلاء ؛ أما « آية الله » — وهو ابن سبعين سنة — فإنه لا يخشى أحداً إلا الله .. وهو إذا ما جد الجد ، ورأى استعداد السلطة الحاكمة للوقوف في وجه أنصاره صاح فى أتباعه : « هاتوا الكفن ! » فيأتونه به فيتوضأ و يلف نفسه فيه ، و يقود المظاهرة ... وهو دائما ينتصر بقوة إيمانه ...

هذه نهضة إسلامية بلاريب ، وحركة مباركة لها مابعدها فى الشرق الإسلامى. و إذا انتهى الإيمان بالزعماء إلى عدم الخوف من لقاء الموت فى سبيل الله والوطن ، وقال قائلهم عند الخطوب : « هاتوا الكفن » فبشرهم بالنصر وتحقيق الرجاء] (١)

* * *

[إن الحكم الدستورى هو الحكم الطبيعى الذى سنه الله لعباده فاتبعه الرسل والقادة المؤمنون ... احرصوا على الدستور وأحبوه وقدسوه ولا تفرطوا فى حكم من أحكامه أو حق من حقوقكم التى نص عليها فيه ، فى ذلك مجدكم وسعادتكم وعزتكم] (٢)

« يأيها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما فى الصدورِ وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين . قل بفضل اللهِ و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون »

---

(١) هذا التعليق من كلام المؤمن الغيور صاحب منبر الشرق .

(٢) هذا من كلام رئيس مجلس النواب المصرى فى عيد الدستور المصرى ، كما جاء فى جريدة المصرى فى ٨ من جمادى الآخرة ١٣٧٠ — ١٦ من مارس ١٩٥١ وهو كلام نفيس لاينطبق إلا على الدستور السماوى ، وعسى أن يكون الرئيس فى مقدمة الداعين إليه ، وإذاً لا نلبث أن نكون فى مقدمة المستجيبين له .

امتحان الله وامتحان الملوك

غنى عن البيان أن ملكا واحداً يَمتحن ولا يُمتحن ويحاسِب ولا يُحاسَب ، وحسبك الله عز وجل « لا يُسألُ عما يَفعلُ وهم يُسألون » ويناسب هذا المقام ما يُروى [1] أن إبليس ظهر لعيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال له : ألست تقول إنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم . قال : فارم بنفسك من ذروة هذا الجبل ، فإنه إن يقدر لك السلامة تسلم ؛ فقال له : يا عدو الله ، إن لله أن يختبر عبده ، وليس للعبد أن يختبر ربه .

وامتحان الله لعباده فى الدنيا مما استفاضت به الأنباء : فى الكتب السماوية ، والشرائع الإلهية ، والروايات المتواترة ، التى لا تقبل جدالا ولا تأويلا ؛ ومنها أن الرجل كان يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد فما يصده ذلك عن دينه ! ومنها حديث الثلاثة : الأبرص والأقرع والأعمى ، وفوز الأخير برضاء الله ، وهلاك صاحبيه بسخطه عليهما ؛ ومنها قصة أصحاب الأخدود التى ذكرها الله فى صدر سورة « البروج » ومنها ما ابتلى به المؤمنون فى مبدأ الإسلام بل فى كل زمان ومكان ! وحسبنا قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون » « أحسِب النـاسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين »

وأما امتحان الله لعباده فى الآخرة ، فلو لم ترد به الأخبار القاطعة ، والبراهين الساطعة ، ولو لم تجمع عليه الأديان قاطبة — لاقتضاه العقل ، وحكم به العدل .

(١) لا بأس بالروايات الاسرائيلية التى لم ترد فى الكتاب والسنة ، ما لم تعارضهما .

فكيف وأصول الدين من لدن آدم إلى موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — هى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: من البعث والحشر والعرض إلى أن يدخل أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النار « فمن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره » ... والذين ينكرون اليوم الآخر ويجحدون البعث والجزاء ، أو يتصورونه على ما توحى به الأخيلة والأهواء — يصفون ربهم بالعجز والظلم ، ويلحدون فى آياته بعد ما جاءهم من الحق والعلم ، فلن يؤمل فيهم خير ، ولن يرجى منهم هدى « أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه وأضله اللهُ على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون »

ومن امتحنه الله فى هذه الدنيا فنجح فى امتحانه ، على نور من ربه وإيمانه ، فهو فى الآخرة أعظم نجاحا وأهدى دليلا « ومن كان فى هذه أعمَى فهو فى الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلا »

* * *

وأما امتحان الملوك لرعاياهم فى الدنيا فهو مشهور مسطور ، مبثوث فى كتب الأدب والتاريخ . وأكثر ما يكون فى المناسبات المهمة ، وعند اشتداد الأزمات واضطراب حبل الأمة ، وعند اختيار الولاة والعمال ، والقادة والقضاة وغيرهم من رؤساء الأعمال .

وللملوك الفرس — ولاسيما كسرى أبرويز — عناية بالغة بامتحان الخاصة من الرعية فى كتم الأسرار ، وحفظ الحرَم ، والغيرة على المملكة ؛ إذ كانت هذه الثلاثة أركان الملك ودعائمه . وسبقت الإشارة إليها فى ص ٨١

وقد قلنا فى ص ٩٤ إن للفاروق الأول قدم السبق فى امتحان خير أمة أخرجت

للناس . وكذلك الفاروق الثانى رضى الله عنه وعن جده [1] كان يمتحن الناس ويتحرى أحسنهم سيرة وأقومهم طريقة ؛ لأن الولاة والموظفين عماد الدولة وقيامها ، فإذا لم يكونوا أقوياء أوفياء أمناء تصدع أساسها وانهار بنيانها ، ورجع ذلك بالخيبة والمعرة والهلاك على الموظفين أنفسهم « واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومما يذكر فى اختباره وتحريه أنه استشار بعض صفوته فى قوم يستعملهم ، فقال له : عليك بأهل العذر ، قال ومن هم ؟ قال : الذين إن عدلوا فهو ما رجوت منهم ، وإن قصروا قال الناس اجتهد عمر . ويناسب هذا أن عدىّ بن أرطاة قال لإياس بن معاوية : دلنى على قوم من القراء أولِّهم ، فقال له : القراء ضربان : ضرب يعملون للآخرة لا يعملون لك ، وضرب يعملون للدنيا ، فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها ؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فولِّهم .

وكان عبد الملك بن مرْوان شديد اليقظة ، كثير التعاهد لولاته ، فبلغه أن عاملا من عماله قبل هديةً ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال . قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن أنلت مُهدِيَك لا من مالك أو استكفيته ما لم يكن يستكفاه إنك لجائر خائن . ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدِيَ إليك من مالك وقبلت ما اتهمك به عند من استكفاك وبسط لسان

---

(1) أم عمر بن عبد العزيز هى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. وكان الفاروق الثانى أشبه الناس بجده ، كما كان الحسن أشبه الناس بجده صلى الله عليه وسلم .

عائبك وأطمع أهل عملك إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يخلُ فيه من دناءة ، أو خيانة ، أو جهل ، مُصْطَنَعٌ . نحِّياه عن عمله .

وإن تعجب فعجب أن ينتفع بهذه الوصايا الذهبية المباركة غيرُ أهلها من الأمم الغربية ، ويُحرمها أحق الناس بها وأهلُها من الأمم الشرقية ؛ ومن هنا كثر فى كبار موظفينا الغش والاختلاس والتزوير ، والإثراء الضخم من دماء الجائع والمسكين والفقير ، ثم لا وازع من دين أو خلق أو ضمير ، وأنى لهم وقد جعلوا الغرب قبلتهم وعدوّ الله إمامهم !

ومن طرائف الامتحان :

فى العهد النبوى ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كنت عند النبى ﷺ فأتى بجمار فأكل منه وقال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم ؛ فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فِى شجر البوادى ؛ قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فأردت أن أقول هى النخلة فاذا أنا أصغر القوم — وكنت عاشر عشرة أنا أحدثهم — ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم واستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة . قال عبدالله : فحدثت أبى بماوقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحبُّ إلىّ من كذا وكذا ؛ وعند ابن حِبَّانَ فى صحيحه : أحسبه قال: من حُمْر النَّعم. والإبل الحمراء كانت أحب أموال العرب وأنفسها ، ومنه حديث الصحيحين « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم »

وفى هذه القصة جمل من اللطائف والفوائد :

١ — منهـا أن بركة المسلم كبركة النخلة ، كلاهما عظيم النفع ، عميم الخير ، فى سائر أوقاته ، فى حياته و بعد مماته .

٢ — ومنها التحريض على الفهم والنظر ، وامتحانُ العالم تلاميذَه ، والأب أبناءه بما لا يبلغ مبلغ التعجيز والإرهاق ، وقد روى أبو داود من حديث معاوية رضى الله عنـه أن النبى ﷺ نهى عن الأغلوطات . قال الأوزاعى أحد رواته : هى صعاب المسائل . وذلك محمول على ما لا نفع فيه ، أو كان على سبيل الإعنات والإعجاز .

٣ — ومنها استحباب الحيـاء ما لم يؤد إلى تفويت مصلحة ، ولذا ودَّ عمر لو لم يكن ابنه « سا كتاً » .

٤ — ومنها مراعاة المناسبة عند الحديث ، وذلك يرجع إلى جمال الذوق ودقة الإحساس ولطف الشعور . وقد ذا كر النبى ﷺ أصحابه فى النخلة و بركتها لمنـاسبة الجمار إلا أنه ذكرها باسم الشجرة امتحاناً لهم ، فى لطف وظَرف ، وأدب ومفاكهة ، وكم من أمثال ذلك فى السنة المطهرة ، لمن أحب أن يكون من الكرام البررة .

٥ — ومنها أن الأب يحب لابنـه أرفع الدرجات وأعلاها ، و يؤثر هذا على الدنيـا وما فيها ، ولذا أوصت الشرائع ببر الوالدين و إكرامهما وبالغت فى ذلك كثيراً ، ولم تبالغ فى الوصية بالأبناء ، لأن حنان الأبوين فطرى لايحتاج إلى وَصاة ، وقد قيل لايتمنى أحد أن يفوقه أحد إلا الأب ، يتمنى أن يفوقه ابنه و يرتفع عليه . وهذا هو السر فى أن الآباء — ولاسيما العظماء منهم والملوك — يُفضون إلى أبنائهم بذوات نفوسهم ، ومكنون أسرارهم ، و يحذرونهم غلطاتٍ أو هَنات وقعوا فيها من قبل ، و ينصحون لهم جاهدين أن يجعلوا بينهم و بين هذه الأخطاء ـ و إن صغرت ـ سداً منيعاً .

ومن أجلّ ما ينصح به الملوك والعظماء لأبنائهم : أن النـــاس على دين ملوكهم ، وأن الناس — ولا مناص — متحدثون ، فى السر أو فى الجهر بما يعملون.

ومهما تـكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

هذا ، والقلم يكتب ، والتاريخ يسجل « وما ربُّك بغافل »

عضو الجامعة الاسلامية(*)

وفى هذا التشبيه النبوى البديع ، يبين لنا النبى ﷺ المسلمَ الناجحَ بحق ، الذى يصلح أن يكون عضواً حياً فى الجامعة الإسلامية ، ولبنة قوية فى بنائها . ومن أحق منه صلوات الله وسلامه عليه بهذا التبيين ، وهو أول المسـلمين بشهادة الله سبحانه « قل إن صلاتى ونُسُـكى ومحياى ومماتى لله ربِّ العـالمين . لا شريك له و بذلك أُمِرتُ وأنا أولُ المسلمين »

ذلك بأن النخلة خفيفة المؤنة ، قليـلة الـكلفة : تنفع ولا تضر ، وتحسن ولا تسيء ، وتعطى كثيراً ولا تأخذ — إن أخذت — إلا قليلا . وكذلك المسـلم الحـق : يتعفف ولا يلحف ، و يتلطف ولا يتـكلف ، مأمول نفعه وخيره ، مأمون شره وضره ؛ يحسن إلى الناس و يعفو عن إساءتهـم ، و يعطيهم مخلصاً ، ولا يريد منهم جزاء ولا شكورا .

وفى النخلة صلابة واستقامة ، وقوة ومتانة ، لا تحركها الرياح ولا تنال منهـا العواصف . وكذلك المسلم الحق : قوى فى دينه ، ثابت فى يقينه ، فى الزلازل وقور ، وفى المـكاره صبور ، وفى الرخاء شـكور ، مهتد وهاد إلى الصراط المستقيم .

***

(*) لهذا الموضوع صلة بدرجات الأفراد والأمم فراجع ص ٣٠ و ص ٣٥ وما بعدهما .

النخيل وارفة الظلال ، طيبة الثمار ممدودة الخير موصولة النفع منذ أن تغرس ، إلى أن تجفَّ وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعاً وترسل فى مصالح الناس ومرافقهم . ولن ترى شيئاً من أصولها وفروعها وثمارها مهملاً أبدا . ويدرك بركة النخيل وخيرها فى حياتها وبعد مماتها من يعلم أن كثيراً من الناس كانوا — ولا يزالون — يقيمون فى بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون على التمر عمرا ، كما تعيش إبلهم على النوى دهرا . وفى السيرة النبوية عن عائشة رضى الله عنها : إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ما نوقد ناراً إن هما إلا الأسودان : التمر والماء !

وكذلك المسلم الحق ، كله خير وبركة حياً وميتاً ، لنفسه وعشيرته وأمته ووطنه والعالم أجمع :

أما فى حياته فبما يعلمهم ويرشدهم ويؤدى حقوقهم ويسعى جاهداً فى مصالحهم ويعينهم على البر والتقوى .

وأما بعد مماته فبما يترك فيهم من علم نافع أو هدْى صالح أو أثر مبارك ، أو سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شىء .

هذا هو المسلم الحق ، الذى تتألف منه ومن أمثاله أمة رشيدة قوية ، متماسكة متآزرة « كزرع أخرج شطأه [1] فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه » أمة جديرة بما وعد الله عباده المؤمنين : من النصر والعزة والتمكين فِي الأرض .

وهؤلاء هم الذين عناهم النبى ﷺ حين قال : « مثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عُضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى » وحين قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »

(١) شطء الزرع والنخل : فراخه .

نتائج الامتحان

نتيجة كل ممتحَن تابعة للدرجات التى يعرج إليها ، أو الدركات التى يتردى فيها . وتتفاوت هذه المراتب تفاوتاً كثيراً لا يحيط به إلا عالم الغيب والشهادة :

أما درجات النجاح فيعلو بعضها بعضا حتى تنتهى إلى الرفيق الأعلى الذى كان يطلبه النبى ﷺ فى مرض موته ، وأما دركات السقوط فيتدلى بعضها تحت بعض حتى تنزل إلى الدرك الأسفل ، حيث يهوى الذين نسُوا الله فأنساهم أنفسهم « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءَهم » .

وقد بينا فى درجات الأفراد والأمم والملوك ثم فى مقياس الدرجات — أرفع الناس درجة وأسفلهم منزلة ، وإذاً فنتيجة امتحاننا معروفة ! وإن شئتم فقولوا بل هى منكرة ! وإن شئتم فقولوا بل هى مخزية فى الدنيا والآخرة (ص ٩٦) وأى خزى بعد هذه النسبة الحقيرة التى لا تبلغ واحداً فى المائة ، بل تهبط إلى الصفر وما تحت الصفر دركات كثيرة ؟! (ص ٥٦) وأى خزى بعد أن يغتصب العدو تراثنا فلم نحرك لذلك ساكنا ؟! بل نقدم له — متطوعين — شهادات السفه والخيبة ، ونحن نشترى منه بأبنائنا وأموالنا حشَفا حقيرا مزيفا ، أسماه أسماءً خلابة خداعة ، منها الحرية والحضارة والمدنية ، وما هى إلا العبودية والتعاسة والرزية ؟!

ولو أننا غنمنا من دنيا العدو شيئاً لكان لنا من خسران الدين بعضُ العزاء والسلوى ، ولكنا بعنا الدين بالدنيا فخسرناهما جميعا ! وكانت نتيجة الامتحان فيهما ما قدمنا !

ولا نريد أن نطيل القول فيما تذهب النفس عليه حسرات ! وإنما نريد أن نتبين :

من هم المسئولون :

عن هذه النتائج المخزية ، ومدى مسئولية كل منهـم ؟ لنناقشهم ، أو يناقشوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا حساباً عسيراً لا قبل لهم به ؛ بل قبل أن تعصف بهم عواصف الثورة الجموح التى لا ترحم أحداً ، أو قبل أن تأخذهم فتنـة لا تصيبن الذين ظلموا منهـم خاصة ! !

لا يختلف اثنان فى أن كلا منا مسئول عن نفسه وعن رعيته التى اسـترعاه الله إياها ، ولا يختلف اثنان كذلك فى أن مسئولية كل منا على حسب منزلته ، ومايرجو من رفيـع درجته : الإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل فى أهـله راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته [1] وكل إنسان مسئول عن جوارحه وهى شاهدة عليه بلغة فصيحة مدوِّية « يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهـــم وأرجلُهم بما كانوا يعملون » « وقالوا لجلودهم [2] لِمَ شَهِدتم علينا قالوا أنطقنا اللهُ الذى أنطق كلَّ شىءٍ وهو خلقكم أولَ مرة وإليه تُرجَعون . وما كنتم تستترون أن يشهدَ عليكم سمعُـكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ولـكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وذلكم ظنُّكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين »

***

---

(١) اقتباس من حديث صحيح مشهور رواه الشيخان عن ابنِ عمر رضى الله عنهما .

(٢) ذهب كثير من المفسرين إلى أن الجلود هنا كناية عن الفروج ، وهو الأنسب بتخصيصهم بالسؤال، ولاريب أن جريمة الفروج أعظم عقوبة وخزيا وفضيحة فى الدنيا والآخرة من سائر الجرائم !

مسئولية أولى الامر

و إذا كان سؤال كلٍّ وحسابه على قدر منزلته ، فإن أعظم الناس مسئولية هم ولاة الأمور ومن بيدهم الحل والعقد ؛ ولذا كان الفاروق رضى الله عنه أخوف الناس على رعيته وأشدهم حساباً لنفسه من أجلها ، و بلغ من خوفه أن كان يقول : لو مات جدى بطرَف الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر ! وقدم عليه الأحنف بن قيس فى وفد من العراق فى يوم صائف وهو محتجز بعباءة يهنأ بعيراً [١] من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلمَّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه لمن إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة . فقال رجل من القوم . يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ! فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ! فقال عمر : وأىُّ عبد هو أعبد منى ومن الأحنف ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين يجب عليه لهم مثل مايجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة ! ورحم الله ابن عباس قال : كان عمر كالطير الحذِر الذى كأن له بكل طريق شَرَكا ! !

الدساتير والمسئولية

غير أن الدساتير الأرضية ـ ومنها الدستور المصرى ـ تُعفى الملوك ورؤساء الجمهوريات من المسئولية وتلقيها على كواهل الوزراء . وفى الدُّستور المصرى [٢] المواد الآتية :

---

(١) يطليه بالهناء ككتاب وهو القطران . وكان البعير أجرب .

(٢) وضع على مثال الدستور البلجيكى مستعيراً هنا وهناك من غيره من الدساتير الحديثة أحكاما مختلفة ... لا جرم أن ما وافق الدستور السماوى منه إنما جاء عفواً ومصادفة ليست بمقصودة ! !

٣٣ — الملك هو رئيس الدولة الأعلى وذاته مصونة لا تمس .

٣٤ — الملك يصدق على القوانين و يصدرها .

٤٦ — الملك هو القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية ، وهو الذى يولى ويعزل الضباط و يعلن الحرب و يعقد الصلح ويبرم المعاهدات ...

٥٧ — مجلس الوزراء هو المهيمن على مصالح الدولة .

٦١ — الوزراء مسئولون متضامنين لدى مجلس النواب عن السياسة العامة للدولة ، وكل منهم مسئول عن أعمال وزارته .

٦٢ — أوامر الملك شفهية أو كتابية لا تخلى الوزراء من المسئولية بحال .

٦٧ — لمجلس النواب وحده حق اتهام الوزراء فيما يقع منهم من الجرائم ، فى تأدية وظائفهم ...

١٣٨ — الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية .

ومن البدهى أن كون الملك غير مسئول قانوناً ليس معناه أنه لا يخطئ فى الواقع ، أوأنه غير مسئول مسئولية أدبية ، أوأنه غير مسئول بين يدى ملك الملوك سبحانه .

إن الملوك أعظم الناس تبعة وأثقلهم حملا هنالك ! يوم يأتى الرجل العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة (١) « ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا »

و « الملك لا يخطئ » قاعدة من قواعد القانون الانجليزى العام ، وأصبحت أساساً فى جميع الدول الملكية ، وليس معناها أنه معصوم ولكن المراد أنه لا يمكن اتهامه ولا رفع الدعوى عليه بطريق مباشر ، لأن فى محاكمته أو إخضاعه لسلطة ما

(١) هذا لفظ حديث صحيح رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أوله « إنه ليأتى » الخ .

تحريضاً على الفوضى . وكانت انجلترا فى القرون القديمة تعزل ملوكها وتحكم عليهم بالإعدام ، ولكن انتهى الأمر بالدول إلى أن تنبهت لعواقب هذه التجارب ، فأبعدت الملك عن كل نقد أو محاكمة ، ورأت ألا يسأل إلا بمسئولية مستشاريه ووزرائه .

وبهذا أصبح العلماء والوزراء والقادة بشهادة الدستورين السماوى والأرضى جميعاً أعظم الناس مسئولية عن تأخر أممهم وانحطاطها وسقوطها فى الدين والدنيا !

وإذا لم يكن للاسلام الكلمة الأولى فى كل شأن من شؤون الجامعة الإسلامية - كانت أعظم مادة من الدستور الأرضى (١٣٨) معطلة ، وكان القائمون بالأمر والمنادون بقداسة هذا الدستور والمحافظة عليه هم أضيع النـــاس له ، ذلك بأنه قد نص فى المادة ١٤٤ على أنه لا يجوز بحال تعطيل حكم من أحكامه إلا أن يكون ذلك وقتياً فى زمن الحرب أو أثناء قيام الأحكام العرفية وعلى الوجه المبين فى القانون .

فعلى النواب — أو على الأمة بعبارة أصح — أن يسألوا المهيمنين على مصالح الدولة عن تعطيل هذه المادة ؟ بل عليهم أن يسألوهم عما هو أكبر إثماً من تعطيلها ، وهو مناقضتها والعمل على ضدها بما يباح من الفجور والخمور والمنكرات التى لا حظ لراضٍ عنها فى الإسلام بتة ! عليهم أن يسألوا ويحاسبوا ويغضبوا لله والوطن إن كانوا مسلمين ! أو إن كانوا — على الأقل — يؤمنون بأن لهم دستوراً يجب احترامه ؛ وهذا بعض حقهم الذى أوجبه الدستور نفسه فى المادة ٦١ وما نظنهم ممن « يخادعون الله والذين آمنوا »

وكأنى بالمهيمنين على مصالح الدول قد أخذوا بتلابيب العلماء والشيوخ والنواب وهم يُسألون جميعاً بين يدى أحكم الحاكمين عما فرطوا فى النصح لهم ولولاة الأمور كافة ؛ فلا يفلت منهم إلا من أخلص النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

مسئولية الامة

وإذا كان الوزراء هم المسئولين أمام نواب الأمة — أو أمام أفراد الأمة على الأصح — فإن حقاً على كل فردٍ من الأمة ألا ينيب عنه إلا من عُرف بالغَيرة على دينه وقوميته والمصلحة العامة . وحسبه أن يختار نائبه من أهل العذر الذين بيناهم في (ص ١٠٦) غير مؤثر على الدين والوطن وحب الله ورسوله مالا ولا ولدا « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشَوْن كسادَها ومساكنُ ترضَونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيلِه فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللهُ بأمره واللهُ لا يَهدِى القومَ الفاسقين »

أما بعد ، فإن المسئولية موزعة على الأمة كلها : عامتها وخاصتها ، علمائها وجهالها — ولا يعذر أحد بجهله — وزرائها ونوابها ، شيوخها وشبابها ، منفردين ومجتمعين . فلينظر امرؤ أين يضع نفسه « ولتنظر نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ »

* **

ولاندع القول فى مسئولية الأمة فردا فردا حتى ننبههم جميعاً على أركان ثلاثة ، هن مقوِّمات الأمم وأعظم الأسس فى بنائها وسقوطها ، وتقدمها وانحطاطها : تلك هى الدين واللغة والجيش . فـكل فرد مسئول عن نفسه أولا وعن تأخر كل واحد من هذه الثلاثة ثانيا ، إذ كانت هى مقياس نجاحه ونجاح أمته فى الآخرة والأولى .

ألا إنه إذا كان الساكت عن الحق شيطانا أخرس، فإن سكوت الأمة على ممثليها ونوابها — ولاسيما الذين يتهاونون بدينها ومصالحها — سكوت الشياطين الخرس ! فمن رضى لنفسه أن يكون شيطاناً أخرس فما عليه إلا أن يسكت ! !

أيتها الأمم

***

علمتم أن مدار النجاح فى الدين والدنيا على صدق النيـة و إخلاص الطوية ، مع العلم النافع والعمل الصالح جميعاً ، وأما العلم المجرد فلا خير فيه ، بل هو حجة على صاحبه ووبال عليـه وعلى أمته ! وكم من عامل بعلمه القليل سـبق أفذاذا ممن يشار إليهم بالبنان من علماء اللسان ! ثم كان من الذين رفعهم الله ورفع بهم الأمم والأوطان درجات . وقد استعاذ النبى ﷺ وأمرنا أن نستعيذ بالله من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها !

و إذا كان الإخلاص سرا بين العبد ور به فإن له دلائل تهدى إليه ، و إن عزَب شىء منها عن النـاس فإن عالم الغيب « لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أ كبرُ إلا فى كتاب مبين »

فلا وزن إذاً لمجرد النظريات الفلسفية ، أو الشقّشِقة اللسانية ، أو الدعاوى الـكتابية التى لا دليل من العمل عليها . ولو كان للقول بلاعمل أثر فى النجاح لـكنا معشر الشرقيين أعظم الناس نجاحا ، وأ كثرهم رشدا وفلاحا . ولسنا بحاجة إلى أن نقول : إن كثيرا من المؤلفين والشعراء والـكتاب الذين أتخمو المـكتبات بما لا يحصى من المؤلفات ، فى التربية والسيرة والاجتماع ، والدفاع عن الدين واللغة والأخلاق — قضَوا أعمارهم بين الطاس والـكاس ، وخبائث الوسواس الخناس .

ألا إن الدعاوى الفارغة لا أثر لهـا إلا فى السقوط والهلاك ! ألا و إن السقوط

دركات كما أن النجاح درجات. ويعلو العبد حتى يكون ملـكا كريماً، ويسفل حتى يكون شيطاناً رجيما؛ ألا وإن الله إذا أراد بقوم سوءاً منحهم الجدل، ومنعهم العمل! وعياذاً بالله من سخط الله!

* * *

إنه لن يوضع تأليف فى ميزان النجاح إلا إذا كان سليما قويماً أمينا، مقصوداً به النفع والخير. وعلى حسب نيـة صاحبه ونَصفته، وأمانته وكفايته — يؤتى أُكُله «والبلد الطيبُ يَخرجُ نباته بإذن ربه والذى خبُث لا يخرجُ إلا نَـكِداً».

وقد كتب أبو محمـد على بن حزم رحمه الله رسالة فى مؤلفات أهل الأندلس، ثم قال: وإنما ذكرنا:

المؤلفات المستحقة للذكر

والتى تدخل تحت الأقسام السبعة التى لا يؤلف عاقل عالم إلا فى أحدها؛ وهى: إما شىء يخترعه لم يسبق إليه، أو شىء ناقص يتمه، أو شىء مستغلق يشرحه، أو شىء طويل يختصره دون أن يخـل بشىء من معانيـه، أو شىء متفرق يجمعه، أو شىء مختلط يرتبه، أو شىء أخطأ فيه صاحبه يصلحه. وأما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها، وهى عندنا من تآليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وماذا كان يقول أبو محمد لو قُدر له أن يشاهد بعصرنا خفافيش المؤلفين: من الطباعين والوراقين، والمجتـــدين والمأجورين، ومن محترفى الوعظ والإرشاد، وذوى الثرثرة فى كل ناد؛ إلى آخرين استعجلوا المجد، فتزببوا قبل أن يتحصرموا، وعلَّموا قبل أن يتعلموا؟! وحبذا النار تأكل الأقذار والأوزار!

ومن الإنصاف الذى نرجو أن يكون عماد كتابنا هذا ، أن ننوه بكتب حديثة لها فى الجامعة الثقافية مكان ، ونرجو — بعد إصلاحها — أن يكون لها موضع فى الميزان ؛ ومن آى التنويه بها ، أن ننبه على نقدها ، وكفى بها تنويها ، أن تعد مساويها .

(١) فى فجر الإسلام[١] ط ٥ ص ٢١٧ مانصه : « ولم نظفر منهم فى هذا الباب [نقد متن الحديث] بعشر معشار ما عُنوا به من جرح الرجال وتعديلهم ، حتى نرى البخارى نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال ، كحديث « لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة » وحديث « من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل »

ونحن نيابة عن أبى عبدالله البخارى رحمه الله ــ نضع بين يدى القاضى[٢] الأمين هذه المقدمات الصحيحة ، ثم نترك له الحكم و إعادة النظر فى قضية هذين الحديثين المظلومين ، المتفق عليهما بين الشيخين .

فى إحدى روايات البخارى للحديث الأول عن ابن عمر نفسه راوى الحديث : « صلى النبى ﷺ صلاة العشاء فى آخر حياته ، فلما سلم قام النبى ﷺ فقال : أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد . فوهل الناس...[٣] و إنما قال النبى ﷺ لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض... »

---

(١) لشيخ المؤلفين فى هذا العصر الأستاذ الكبير أحمد أمين بك مدير الادارة الثقافية بالجامعة العربية .

(٢) لبث الأستاذ فى القضاء الشرعى بضع سنين قبل أن يتقلب فى المناصب العلمية الكبرى .

(٣) فزعوا أو غلطوا فى فهم الحديث ، إذ فهموا منه فناء العالم بعد مائة سنة كما فهم من لم يطلع على هذه الرواية كبعض المستشرقين الذين نغتر بهم كثيراً ونتخذهم فى البحث إماما ! ! انظر هامش ص ٣٩ واستبدل المائتين ــ صواباً ــ مكان المائة .

قال الشراح: وهذه إحدى معجزاته ﷺ فقد ظهر بالاستقراء أنه لم يعش أحد اكثر من مائة سنة ممن كان على ظهر الأرض منذ تلك الليلة. وقد روى الأستاذ الحديث أو رُوى له من موضع واحد فقط، ولعله روى بالمعنى، لأنا لم نجد هذا اللفظ للبخارى ولا لمسلم. ولا يحكم باحث على الحديث ولاسيما حديث الشيخين أو أحدهما إلا بعد تتبع الروايات والتثبت من معناها، فإنها يكمل بعضها بعضاً فى اللفظ والمعنى.

وأكبر الظن أنه اعتمد فى سوق هذا الحديث على ذاكرته[1] التى غاب عنها أن الذاكرة لا يعوّل عليها فى هذا الشأن، اللهم إلا أن تقارب ذاكرة أمير المحدثين — غير مدافَع — أبى عبد الله البخارى.

والمراد بالتمر تمر المدينـة كما فى صحيح مسلم وغيره. وعدمُ الإصابة لدعائه ﷺ لهذا التمر، لا لذاته وطبيعته. وليس المقصود التحدى والتجربة، فإن العبد لا يمتحن ربه كما قدمنا عن المسيح عليه السـلام فى ص ١٠٤ بل المقصود أن فاطر السموات والأرض — إذا ألهـم عبده أن يفطر على هذه التمرات السبع [2] حفظه من السم والسحر، وكان الإيذاء بهما شائعاً عند أعداء العـالم كله، وكانوا جيران النبى ﷺ وأنصارِه. ولم يثبت فى حادثةٍ ما أن أحداً تصبح بهذه السبع فأصيب فى يومه بسم أو سحر. فمتى وأين كانت التجربة؟ وإذا كان لدعاء العامة أثر لا ينـكر، فما بالك بمن أعطاه الله الـكوثر؟

على أنه لا مانع أن يودع الله بعض الأشـياء خاصة تدفع الأذى والضرر مادياً كان أو روحيا «وصدق الله ورسوله» «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»

(١) كان البحاثة المؤرخ أحمد رمزى بك نبه أستاذنا على خطأ فى كتابه «حيـاتى» فبعث إليه يشكره معتذراً بأنه كان اعتمد على ذاكرته على حين اعتمد رمزى بك على مذكراته. انظر مجلة الرسالة ٨٧٩ـ٨٨٠

(٢) فى الايثار قولا وعملا تقوية للتوحيد حتى يختلط باللحم والدم، من الرأس إلى القدم.

وبعد ، فمثل الأستاذ من يقدر فضيلة الرجوع إلى الحق ، ويصحح هذا الخطأ ونحوه فيما يجد من طبعات لكتبه النافعة .

ولعل هذا من أدب النقد الذى يسره ويقدره ويشجعه على الاستشهاد بغير هذين الحديثين إن وجد ، ولكن بعد البحث والتحرى الذى يرجى من مثله [1]

(ب) صريح الكتاب والسنة وعقيدة المسلمين كافة أن البعث بالروح والجسم معاً « كما بدأنا أولَ خلق نعيده » وأن العذاب روحانى وجسمانى كذلك ، على أتم مايكون « الشخص » قوة وحسا ووعيـــــاً ، خلافاً لكفرة الفلاسفة الذين ذهبوا إلى أن البعث بالروح فقط .

بيد أننا نقرأ فى الفلسفة القرآنية [2] تأييداً لهذا المذهب ، مع تأويل لآىٍ من القرآن العربى المبين يجعلها إلى الخيال أقرب !

ولسنا بحاجة إلى الرد على المؤلف الكبير بعد أن كفانا مؤونة الرد عليه عالم جليل [3] وستنكشف له الحقائق « يوم يقوم الناس لرب العالمين »

ولكنا بحاجة إلى أن ننصف فيلسوفنا الإمام المفسر الذى اجتذبه المؤلف إلى مذهبه اجتذابا [فأبرز لنا شاهداً من كلام الإمام تناوله الإمام نفسه بالتجريح ، وأغفل شاهداً تناوله بالتزكية والترجيح] .

ولو كان مؤلفنا كاتباً عادياً لضربنا عنه صفحاً أو احتلنا « لهفوته » عذراً . ولكنا لا نجد لصاحب العبقريات [4] معذرة .. اللهم إلا أن يضرب لقرائه المثل

---

(١) للمؤلف فى كتابه حياتى ص ٣٣٥ : « يسرنى كل السرور أن يقدر الناس كتبى وأفكارى ، ولكن إذا نقدوها فى أدب عددت ذلك ضربا من ضروب تقديرها والاهتمام بها » .

(٢) للكاتب العلم الأستاذ عباس محمود العقاد .

(٣) صديقنا الفهامة محمد يوسف الشيخ أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين وهو صاحب الفضل والسبق فى الرد على المؤلف فى مجلة الأزهر م ١٩ ج ٧-٨ ومن كلامه ما بين هاتين القوسين [ ] .

(٤) هى ـ كما قلنا فى الطبعة الأولى ـ من النبل بمكان عظيم .

فى أمانة النقل والرجوع إلى الحق ، وله بالفاروق رضوان الله عليه أسوة .

وإليكم ما أخذ من كلام الإمام وماترك حرفاً بحرف ، ولكم التعليق والحكم:

قال المؤلف فى ص ١٧٤ : فالامام فخرالدين الرازى مثلا يقول فى تفسيرالاتكاء على السرر الموضونة : « معناه أن كل أحد يقابل كل أحد فى زمان واحد ولا يفهم هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات . وعلى هذا فيكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أدبار وظهور . فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية : جميع جهاتهم وجه . كالنور الذى يقابل كل شىء » .

وهذا فهم فيلسوف باحث فى الجواهر والأعراض وفى مطالب الأرواح والأجسام.

ونص كلام الإمام قبل هذا : وقوله تعالى : «متقابلين» فيه وجهان : أحدهما أن أحداً لا يستدبر أحداً ، وثانيهما أن أحداً من السابقين لا يرى غيره فوقه ، وهذا أقرب لأن قوله متقابلين على الوجه الأول يحتاج إلى أن يقال متقابلين : معناه أن كل أحد ... الخ .

بقى أن يكون المؤلف قد تعجل فى النقل عجلتى حينما حكمت خطأ على حديث صحيح بالوضع فى بحث دعوت فيه إلى تحرى الأحاديث الصحيحة وإيثارها فى الوعظ والكتابة ، ففيها غنية عن الموضوعة والضعيفة ، ولكن ما لبثت أن أعلنت خطئى ورجوعى إلى الحق بعد ماتبين [1] وإلى القراء سبب الخطأ فقد يكون فيه نفع وعظة :

فى أول صفحة ٢٠٤ من تذكرة الموضوعات للفَتَّنى ما نصه :

« اخبر تقله » كل طرقه ضعيفة ، نعم شهد له ما اتفق عليه الشيخان مرفوعا « الناس كإبل مائة لاتجد فيها راحلة » الصغانى هوموضوع وكذا الناس كأسنان المشط .

---

(١) والذى نبهنى مشكوراً أستاذنا الشيخ منصور ناصف صاحب التاج الجامع لأصول الحديث. ونشرالبحث مصححاً مع الدعوة إلى الأناة فى الحكم ـ بمجلة الهداية ج ١٠ م ٨

اختطفت السطر الثانى متعجلا فأضفت إلى الزلل أن قوّلت الصغانى ما لم يقل ؛ إذ هو يريد الحديث الأول بلا ريب . ومعناه اخبر من شئت فإنك لابد قاليه ومبغضه لما يتكشف لك من معايبه ! ومن هنا أمرنا أن نحسن الظن ونأخذ بالظاهر ، والله يتولى السرائر .

(ج) فى الصفحات الأولى ثم فى صفحتى ١٢٩ — ١٣٠ من الرسالة الخالدة[١] شبهتان[٢] وجدتا فى هذا العصر ، عصر الدعاوى والتأويل والفرار من التبعات — سوقا رائجة :

شبهة أن الإيمان بالله واليوم الآخر مع العمل الصالح كافيان فى الإسلام ولو لم يقترنا بالإيمان بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم . وهذه عقيدة الجهلة بأصول الدين ومنهم كثير من الذين ثقفوا ثقافة أوربية .

ومن البدهى أن الإيمان بمحمد ﷺ جزء من الإيمان بالله وكتابه ، وأنه لا يتصور إيمان بالله تعالى مع تكذيب كتابه أو التفريق بين أحد من رسله .

وشبهةُ أن للامام وأهل الشورى أن يجتهدوا بعقولهم وآرائهم متى بدت لهم المصلحة ولو لم يستندوا فى اجتهادهم إلى قانون الشريعة العام وأصولها الثابتة !

وأكبر الظن أن هذا من قبيل الغموض العارض الذى يحتاج إلى إيضاح وتجلية ؛ أو من آثار العجلة فى البحث والدرس كما قلنا آنفا .

والكتاب العظيم كالدوحة العظيمة لا ينقصها أن يذبل بعض وريقاتها أو أن يلتوى على نفسه أو على غيره غصن من أغصانها .

---

(١) للكاتب الكبير والسياسى المحنك عبدالرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية .

(٢) أزحنا هاتين الشبهتين واعتذرنا عن المؤلف فى الجزأين ٧ـ٨ م ١٩ من الهداية الاسلامية .

ويدعونا إلى حسن الظن بالأمين العام لجامعة الدول العربية ما نعرف لآل عزام من الغَيرة على دين الله ورسالته الخالدة؛ فإذا أراد جدار الظن أن ينقض بما تمناه أمين العرب للمرأة [1] فعليه أن يستمع للحديث الذى قدمناه فى (ص ٤٢) وعلينا أن نقيم الجدار ما استطعنا قبل أن تنقض معه جدُرٌ كثيرة تُهلك بانقضاضها رجالا كثيرا ونساءً !!

(د) وأما الكاتبون فى اجتهاد النبى ﷺ وسيرته وشمائله ومعجزاته وكل ما يتصل به ، فلا وزن لما كتبوا إلا من بعد أن يتأدبوا بأدبه « إن الذين يغضُّون أصواتَهم عندَ رسولِ الله أولئك الذين امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتقوى »

ومن إحقاق الحق أن نذكر رسائل الإصلاح [2] نموذجاً لكتبٍ يؤتم بها فى التأليف رشدا وهداية ، وأمانة وكفاية .

وجملة القول أن الكتب كالناس. و « الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة »

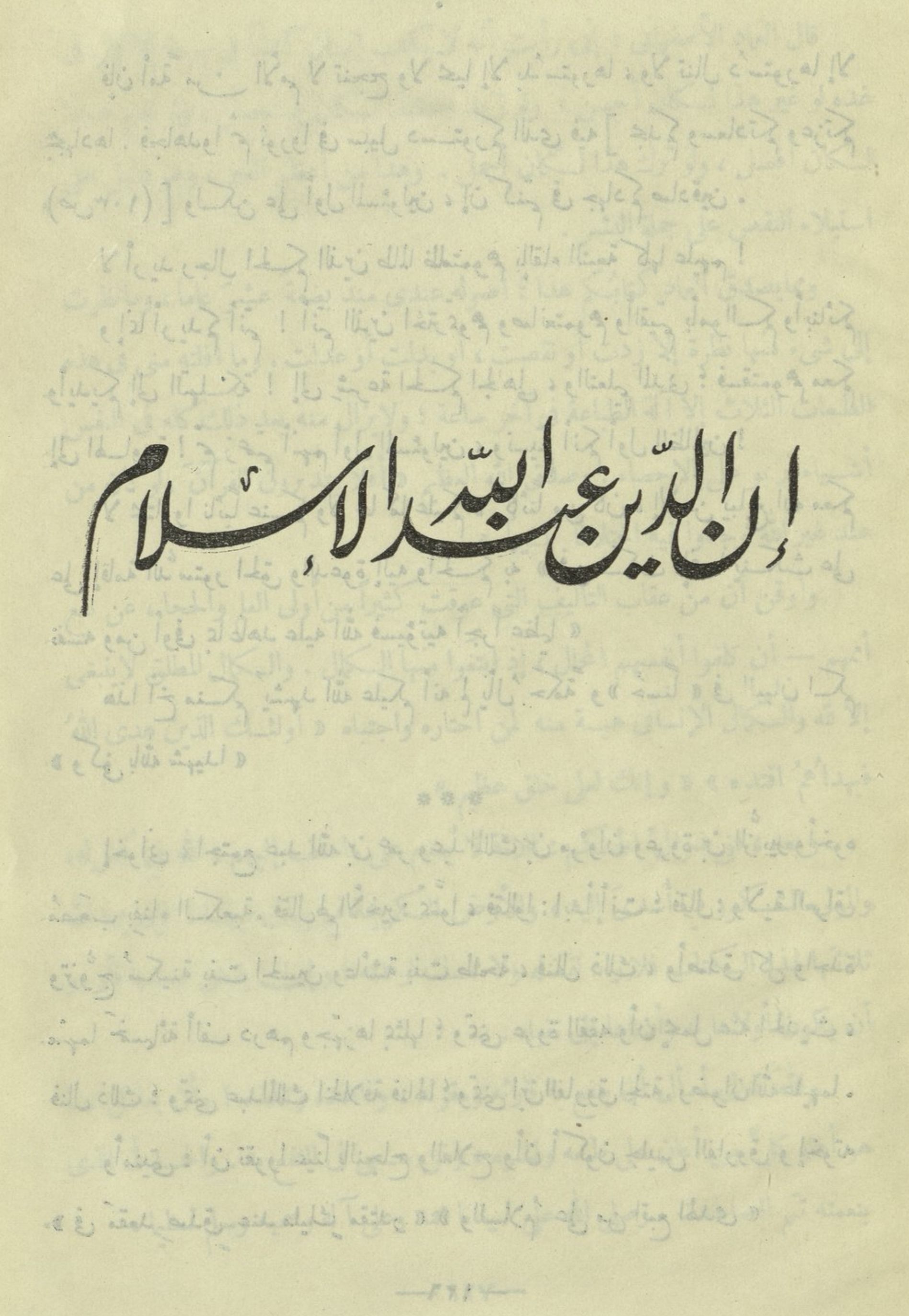
* * *

وأما اللجان والجماعات والمؤتمرات والبَعَثات والتقريرات وما إليها ، فقد كفتنا أخبارها مؤونة الكلام عليها ! لاجرم أن الأزهر والمؤتمرات الدينية أثقلهم وزرا وأشدهم مسئولية ! ولولا أن كثيرا منهم يعرفون الإسلام كما يعرفون أبناءهم ، لبينا لهم من آى الكتاب المبين قولَه تعالى : « وَمَن يبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فَلن يُقبلَ منه وهُو فى الآخِرَة من الخاسرينَ » من بعد قوله جل سلطانه :

---

(١) أن يراها متمتعة بالحريات السياسية : وزيرة أو سفيرة أو « عضوة » فى البرلمان ! وأذاع هذا في المؤتمر الصحفى الذى عقدته الاذاعة الحكومية فى ٩ من جادى الآخرة ١٣٧٠ !

(٢) لأستاذنا الكبير السيد محمد الخضر حسين صاحب الردود الرفيعة القاصمة على كثير من أعلام هذا العصر كالأستاذ على عبد الرازق باشا فى كتابه الاسلام وأصول الحكم ، والدكتور طه حسين باشا فى كتابه الشعر الجاهلى. ومن درس مؤلفات أستاذنا فهنيئاً له الفضل والنبل وأدب الخطاب.


إن الدين عند الله الإسلام

أما بعد :

فإن أمةً من الأمم لا تنجح ولا تحيا إلا بدُستورها ، ولا تنال دُستورها إلا بجهادها . فجاهدوا ثم ثوروا فى سبيل دستوركم الذى فيه [مجدكم وسعادتكم وعزتكم (ص١٠٣)] ولكن على أول المسئولين ، إن كنتم فى جهادكم صادقين .

لا أريد رجال الحكم الذين طالما ظلمتموهم بإلقاء التبعة كلها عليهم !

وإنما أريدكم أنتم ! أنتم الذين اخترتموهم وصانعتموهم وألقيتم بأموالكم وأبنائكم وأيديكم إلى التهلكة ! إلى شِرعة الحكم الجاهلى ، والتعليم المدنى ؛ فسقتموهم معكم إلى الهاوية ! ثم زعمتم أنهم أول المسئولين ، ونسيتم أنكم أول الظالمين !

لا تختاروا نائباً عنكم ولا حاكماً عليكم ، كائناً من كان ، إلا من يبايع الله معكم على إقامة الدّستور الحق والدعوة إليه والحكم به « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما »

هذا أخ منكم يُشهد الله عليكم أنه لم يألُ حكمةً و« حُسناً » فى البيان لكم « وكفى بالله شهيدا »

***

إخوانى ، اجتمع عبد الله بن عمر وعبد الملك بن مرْوان وعروة بن الزُّبير وأخوه مُصعَب بفِناء الكعبة. فقال لهم الأخير: تمنَّوا ، فقالوا : ابدأ أنت ؛ فقال: ولاية العراق وتزوُّج سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، فنال ذلك ، وأصدق كل واحدة منهما خمسمائة ألف درهم وجهّزها بمثلها ؛ وتمنى عروة الفقه وأن يحمل عنه الحديث ، فنال ذلك ؛ وتمنى عبدالملك الخلافة فنالها ؛ وتمنى ابن الفاروق الجنة. رضوان الله عليهما .

وأمنيتى : أن تقروا عيناً بالنجاح والفلاح وأن أكون جليس الفاروق وإخوته « فى مَقعد صِدقٍ عند مليكٍ مقتدر » « والسلامُ على من اتبع الهدى »

عذر وشكر

قال العماد الأصفهاني : إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

ومما يصدق العماد كتابكم هذا ؛ أصوله عندى منذ بضعة عشر عاما ، وما نظرت إلى شيء منها نظرة إلا زدت أو نقصت ، أو بدلت أو عدلت . وما أفلته منى فى هذه الطبعات الثلاث إلا آلة الطباعة في آخر ساعة ؛ ولا يزال منه بعد ذلك كله فى النفس أشياء تربو على الإحصاء . وصدق الله العظيم « أفلا يتدبرون القرآنَ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »

وأوقن أن من عقاب التآليف التى عوقت كثيراً من أولى العلم والحجا ، عن نفع أممهم — أن كلفوا أنفسهم المحال ، إذ ابتغَوا منها الكمال . والكمال المطلق لا ينبغى إلا لله والكمال الإنسانى هبة منه لمن اختاره واجتباه « أولئك الذين هدى اللهُ فبهداهُمُ اقتدِه » « وإنك لعلى خلق عظيم »

وبعد ، ففى ضوالّ الحكم : ثلاثة لا يُندم على ماسلف إليهم : الله فيما عُمل له ، والمولى الشكور فيما أُسدىَ إليه ، والأرض الكريمة فيما يبذل فيها ، فإن يرد الله ثلاثتها لهذا الكتاب فلا راد لفضله ولا ممسك لرحمته ؛ وإن يقض ببعضها فأرجو أن يكون أولاها به وأدناها إلى تقبله .

واللهَ تعالى أسأل أن ينفع به قارئه ومقرئه ، وعاضده وناقده ؛ وأن يعامل بما هو أهله كلَّ من أعان على طبعه ونشره ، ومن سعى فى النفع به . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .